من قصص العرب

إعداد

عبد الله المنشاوى

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٥٧٨٨٢

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا فإنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً . إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا ﴾[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

والصلاة والسلام على النبى الأمى الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وجاهد فى الله حق جهاده حتى آتاه اليقين.

يقول رسول الله ﷺ: «**روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت**».

وبعد: فإن الكلام فى حياة العرب لهو كلام شيق وممتع نتعرف من خلاله على قطوف من الكرم وقطوف من العفاف..والأمانة وحسن الوفاء بالعهود ومعرفة بعض الشخصيات من الرجال والنساء وماحدث لهم سواء مع الملوك أو الأمراء أو الأغنياء .

وكيف غيرت هذه الشخصيات مفهوم الملوك والأمراء وتتطرق أيضا لعشق العرب وكيف كانوا يدافعون عنه .. إلى غير ذلك من القصص فى حياة العرب قبل أو بعد الإسلام .

ويسر مكتبة الإيمان بالمنصورة أن تقدم هذا الجهد المتواضع لقرائها الكرام - راجين المولى عز وجل - أن ينفع الله به المسلمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله المنشاوى

حرب ذي قار

لما تحرك عدى بن زيد بن حماد وأينع طرحه أبوه فى الكتاب، حتى إذا حذق أرسله المرزبان «فروخ ماهان» مع ابنه «شاهان مرد» إلى كتاب الفارسية. فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية، حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية، وقال الشعر وتعلم الرمى بالنشاب، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها.

ووفد المرزبان على كسرى ومعه ابنه «شاهان مرد» فبينما هما واقفان بين يديه إذ سقط طائران على السور. فقال كسرى للمرزبان وابنه: ليرم كل واحد منكما واحداً من هذين الطائرين، فإن قتلتماهما أدخلتكما بيت المال وملأت أفواهكما بالجوهر، ومن أخطأ منكما عاقبته... فقتلاهما... فبعثهما إلى بيت المال، فملئت أفواههما جواهراً، وأثبت شاهان مرد وسائر أفراد المرزبان فى صحابته.

فقال المرزبان عند ذلك للملك: إن عندى غلاما من العرب مات أبوه وخلفه فى حجرى فربيته، فهو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية، فقال: ادعه.

فأرسل المرزبان إلى عدى بن زيد... فكان جميل الوجه فائق الحسن. وكانت الفرس تتبرك بالجميل الوجه. فلما كلمه كسرى وجده أظرف الناس وأحضرهم جوابا، فرغب فيه وأثبته مع ولد المرزبان، فكان عدى أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى. فرغب أهل الحيرة فى عدى ورهبوه.

وظل عدى بالمدائن فى ديوان كسرى يؤذن له فى الخاصة وهو معجب به قريب منه، وكان إذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدى، فعلا له بذلك صيت عظيم.

وأرسله كسرى إلى ملك الروم بهدية من طرف ما عنده. فلما أتاه بها عدى أكرمه وحمله إلى عماله على البريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه. وكذلك كانوا يصنعون. فمن ثم وقع لعدى أن يزور دمشق وقال فيها الشعر.

وقدم عدي المدائن على كسرى بهدية قيصر، فاستأذن كسرى فى الإلمام

بالحيرة، فأذن، فتوجه إليها.

وبلغ المنذر خبره، فخرج، فتلقاه الناس ورجع معه وعدى أنبل أهل الحيرة فى أنفسهم، ولو أراد أن يملكوه لملكوه ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعب على الملك، فمكث سنين يخرج إلى البادية فى فصلى السنة، فيصيف فى حفير ويشتو فى الحيرة ويأتى إلى المدائن فى خلال ذلك فيخدم كسرى. ولم يزل على حاله تلك حتى تزوج هنداً بنت النعمان بن المنذر.

ولما ملك المنذر جعل ابنه النعمان فى حجر عدى بن زيد.. ولما احتضر المنذر وخلف أولاده العشرة أوصى بهم إلى إياس بن قبيصة الطائى وملكه على الحيرة إلى أن يرى كسرى رأيه، فلم يجد أحداً يرضاه، فضجر وقال: لأبعثن إلى الحيرة اثنى عشر ألفاً من الأساورة، ولأملكن عليهم رجلا من الفرس، ولآمرنهم أن ينزلوا على العرب فى دورهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم.

وكان عدى بن زيد واقفا بين يديه، فأقبل عليه وقال: ويحك يا عدى! من بقى من آل المنذر! وهل فيهم أحد فيه خير؟ فقال: نعم، أيها الملك السعيد، إن فى ولد المنذر لبقية فيهم كلهم خير. فقال: ابعث إليهم... فأحضرهم. فجاء بهم عدى من الحيرة وخاطبهم بما أراد وأوصاهم. ثم قدم بهم إلى كسرى.

فلما نزلوا على عدى بن زيد أرسل إلى النعمان: لست أملك غيرك ـ لأنه رباه ـ فلا يوحشنك ما أفضل به أخوك عليك من الكرامة، فإنى إنما اغترهم بذلك. ثم كان يفضل أخوته جميعاً عليه فى النزل والإكرام والملازمة ويريهم تنقصاً للنعمان، وإنه غير طامع فى تمام أمر على يديه. وجعل يخلو بهم رجلا رجلا، فيقول: إذا أدخلتكم على الملك فالبسوا أفخر ثيابكم وأجملها. فإذا قال لكم، أتكفوننى العرب؟ فقولوا نعم. فإذا قال لكم: فإن شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفوننيه؟ فقولوا: لا، إن بعضنا لا يقدر على بعض، ليهابكم ولا يطمع فى تفرقكم، ويعلم أن للعرب منعة وبأساً فقبلوا منه

وخلا بالنعمان فقال له: البس ثياب السفر وادخل متقلداً بسيفك.. وإذا سألك: هل تكفينى العرب؟ فقل: نعم. فإذا قال لك: فمن لى بأخوتك فقل له إن عجزت عنهم فإنى عن غيرهم لأعجز.

ودعا بهم كسرى. فلما دخلوا عليه أعجبه جمالهم وكمالهم، ورأى رجالا قلما رأى مثلهم. فدعا لهم بالطعام، وجعل ينظر إلى النعمان من بينهم، فقال لعدى بالفارسية: إن يكن فى أحد منهم خير ففى هذا. فلما غسلوا أيديهم جعل يدعوهم رجلا رجلا فيقول له: أتكفينى العرب؟ فيقول: نعم. أكفيكها كلها إلا إخوتى... حتى انتهى إلى النعمان آخرهم. فقال أتكفينى العرب! قال: نعم. قال: كلها؟ قال: نعم. قال: فكيف لى بأخوتك؟ قال: إن عجزت عنهم فإنى عن غيرهم أعجز.

فملكه، وخلع عليه وألبسه تاجا قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب ولم يكن عند النعمان لا مال ولا أثاث ولا ما يصلح لملك، وكان أخوته أكثر منه مالا: فقال له عدى: كيف أصنع بك ولا مال عندك؟ فقال له النعمان: عليك تدبير هذا الأمر. فاقترض له من أحد تجار الحيرة ثمانين ألف درهم.

ثم إن حساد عدى وشوا به عند النعمان بعدما صار ملكا حتى حبسه وأمر السجان أن يغمه حتى مات.. وندم النعمان عى قتل عدى عندما عرف أنه احتيل عليه فى أمره.

خرج النعمان إلى صيده ذات يوم، فلقى ابناً لعدى يقال له زيد فلما رآه عرف شبهه، فكلمه، فإذا غلام ظريف، ففرح به فرحاً شديداً، وقربه وأعطاه ووصله واعتذر إليه من أمر أبيه وجهزه. ثم كتب إلى كسرى: أن عديا كان السبب فى تملكى، ولكنه انقضى أجله وشعرت بفقده بأكبر مصيبة. وأما الملك فلم يكن ليفقد رجلا إلا جعل الله له منه خلفاً، وقد بلغ لعدى - ولد ليس دونه - رأيته يصلح لخدمة الملك فسرحته إليه. فإن رأى الملك أن يجعله مكان أبيه، فعل.

فكان زيد هو الذى يلبى المكاتبة بين الملك إلى ملوك العرب فى أمورها وفى خواص أمور الملك. فلما وقع زيد بن عدى هذا الموقع عند الملك سأله عن النعمان، فأحسن الثناء عليه. ومكث على ذلك سنوات، على الأمر الذى كان أبوه عليه، وأعجب به كسرى، فكان يكثر الدخول عليه والخدمة له.

وكانت لملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم، فكانوا يبعثون فى تلك الأرض بتلك الصفة، فإذا وجدت حملت إلى الملك، غير أنهم لم يكونوا يطلبونها

فى أرض العرب ولا يظنونها عندهم.

ثم إنه بدأ للملك فى طلب تلك الصفة، وأمر فكتب بها إلى النواحى. ودخل إليه زيد بن عدى، فخاطبه قائلا: إنى رأيت الملك قد كتب فى نسوة يطلبن له، وقرأت الصفة، وقد كنت بآل المنذر عارفاً. وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنت عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة.

قال الملك: فاكتب فيهم. قال زيد: أيها الملك إن شر شىء فى العرب - وفى النعمان خاصة - أنهم يتكرمون - زعموا فى أنفسهم خاصة - عن العجم، فأنا أكره أن يغيبهن عمن تبعث إليه ويعرض عليه غيرهن. وإن قدمت أنا عليه لم يقدر على ذلك، فابعثنى وابعث رجلا من ثقاتك يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه.

فبعث معه رجلا فخرج به زيد، فجعل يكرم الرجل ويلطفه حتى بلغ الحيرة، فلما دخل على النعمان أعظم الملك وقال: إنه قد احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته، وأراد كرامتك بصهره، فبعث إليك، فقال النعمان: ما هؤلاء النسوة؟ فقال: هذه صفتهن قد جئنا بها. فقرأ زيد الصفة على النعمان. فشقت عليه وقال لزيد، والرسول يسمع: أما فى مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته؟

فقال الرسول لزيد بالفارسية: ما المها والعين؟ فقال له بالفارسية: كاوان - أى البقر - فأمسك الرسول. قال زيد للنعمان: إنما أراد كرامتك ولو علم أن هذا يشق عليك لم يكتب إليك به.

فأنزلهما يومين عنده، ثم كتب إلى كسرى: إن الذى طلب الملك ليس عندى. وقال لزيد: اعذرنى عند الملك.

فلما رجعا إلى كسرى قال زيد للرسول: أصدق الملك عما سمعت، فإنى سأحدثه بمثل حديثك ولا أخالفك فيه.

فلما دخلا على كسرى قال زيد: هذا كتابه إليك، فقرأه عليه. فقال له كسرى، وأين الذى كنت خبرتنى به؟ فقال: قد كنت خبرتك بضنهم بنسائهم على غيرهم، وإن ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعرى على الشبع والرياش وإيثارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه، حتى أنهم يسمونها السجن. فسل

هذا الرسول الذى كان معى عما قال، كأنى أكرم الملك من مشافهته بما قال وأجاب. فقال للرسول: وما قال؟ فأجاب الرسول: أيها الملك إنه قال: إما فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟

فعرف الغضب فى وجهه، ووقع فى قلبه منه ما وقع. لكنه لم يزد على أن قال: رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا، ثم صار أمره إلى التباب.

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان. وسكت كسرى أشهراً على ذلك. وجعل النعمان يستعد ويتوقع حتى أتاه: أن أقبل فإن للملك حاجة إليك. فانطلق حين أتاه الكتاب. فحمل سلاحه وما قوى عليه ثم لحق بجبلى طىء.. أراد النعمان طيئاً، وهم أصهاره على أن يدخلوه الجبلين ويمنعوه. فأبوا ذلك عليه وقالوا له: لولا صهرك لقاتلناك، فإنه لا حاجة لنا إلى معاداة كسرى، ولا طاقة لنا به.

وأقبل النعمان يطوف على قبائل العرب وليس أحد منهم يقبله، غير أن بنى رواحة قالوا: إن شئت قاتلنا معك ـ لمنة كانت له عندهم. قال ما أحب أن أهلككم، فإنه لا طاقة لكم بكسرى.

فأقبل حتى نزل بذى قار، فى بنى شيبان، سراً فلقى هانئ بن مسعود وكان سيداً منيعاً. فقال له هانئ: قد لزمنى ذمامك، وأنا مانعك مما أمنع منه نفسى وأهلى وولدى، ما بقى من عشيرتى رجل، ولكن ذلك غير نافعك لأنه مهلكى ومهلكك. وعندى رأى لك، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريده من مجاورنى، ولكنه الصواب. فقال: هاته.

فقال: إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه، إلا أن يكون بعد الملك سوقة، والموت نازل بكل أحد، ولأن تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك ـ هذا إن بقيت ـ فامض إلى صاحبك واحمل إليه هدايا ومالا. وألق نفسك بين يديه. فإن صفح عنك عدت ملكا عزيزاً، وإن أصابك فالموت خير من أن يتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها، وتأكل مالك وتعيش فقيراً أو تقتل مقهورا.

قال: فكيف بحرمى؟ قال: هن فى ذمتى لا يخلص إليهن حتى يخلص إلى

بناتى، فقال هذا وأبيك الرأى الصحيح. ولن أجاوزه.

ثم اختار خيلا وحللا من قصب[1] اليمن وجوهراً وطرفاً كانت عنده ووجه بها إلى كسرى وكتب إليه يعتذر ويعلمه أنه صائر إليه. وأرسلها مع رسوله.

فقبلها كسرى وأمره بالقدوم، فعاد إليه الرسول فأخبره بذلك. وأنه لم ير له عند كسرى سوءاً فحضر إليه حتى إذا وصل إلى المدائن لقيه زيد بن عدى على قنطرة ساباط فقال له: انج نعيم، إن استطعت النجاة، فقال له: أفعلتها يا زيد. أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربى قط ولألحقنك بأبيك الذى تثأر له.

فلما بلغ كسرى أن النعمان فى الباب بعث إليه فقيده وألقاه تحت أرجل الفيلة، فوطئته حتى مات.

وكان النعمان بن المنذر قد استودع هانئا ماله وأهله وولده وسلاحه، ووضع ودائع عند أحياء من العرب، ولما علم كسرى أن مال النعمان وسلاحه وولده عند هانئ بن مسعود بعث إليه رجلا يخبره أن النعمان كان عاملى وقد استودعك ماله وأهله وسلاحه، فابعث بها إلى، ولا تكلفنى أن أبعث إليك وإلى قومك بالجنود، تقتل الرجال وتسبى الذرية.

فبعث إليه هانئ: إن الذى بلغك باطل، وماعندى قليل ولا كثير. وإن يكن الأمر كما قيل فإنما أنا أحد رجلين: إما رجل استودع أمانة، فهو حقيق أن يردها على من أودعه أياها، ولن يسلم الحر أمانته، وإما رجل مكذوب عليه، فليس ينبغى أن تأخذوه بقول عدو أو حاسد.

فجهز كسرى الجيوش من عرب الحيرة ومن الفرس وأمر عليهم القواد الكثيرين وسيرهم إلى هانئ وقال لهم: إذا شارفتم بلاد بكر بن وائل فابعثوا النعمان بن زرعة إليهم، فإن أتوكم بالسلاح ومائة غلام فهم يكونون رهنا بما أحدث سفهاؤهم فاقبلوا منهم، وإلا تقاتلوهم.

فلما بلغ بكر بن وائل الخبر سار هانئ بن مسعود حتى انتهى إلى ذى قار،

(١) القصب: من البرود اليمانية.

فنزل عليه، وأقبل النعمان بن زرعة فحمد الله وأثنى عليه وقال، إنكم أخوالى وإن الرائد لا يكذب أهله، وقد أتاكم ما لا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب. انظروا هذه الحلقة فادفعوها وادفعوا رهنا من أبنائكم بما أحدث سفهاؤكم. فقال له القوم. ننظر فى أمرنا.

فلما وصل حنظلة بن ثعلبة أخبرته بكر بن وائل بما طلب النعمان بن زرعة فقال: قبح الله هذا الرأى، لا تجر أحرار فارس رجلها ببطحاء ذى قار وأنا أسمع الصوت.

ثم أمر بقبة فضربت بوادى ذى قار، ثم نزل ومعه الناس، وقال لهانئ بن مسعود: إن ذمتكم ذمتنا عامة، وأن لن يوصل إليكم حتى تفنى أرواحنا، فأخرج هذه الحلقة وفرقها بين قومك، فإن تظفر فسترد عليك، وإن تهلك فإنها أهون مفقود، فأمر بها فأخرجت ففرقها بين قومه.

ثم قال حنظلة لابن زرعة: لولا أنك رسول لما رجعت إلى قومك سالما.

ولما رجع ابن زرعة إلى أصحابه أخبرهم بما رد عليه القوم. فباتوا ليلتهم مستعدين للقتال، وبكر بن وائل يتأهبون للحرب.

فلما أصبحوا قبلت الأعاجم نحوهم. وأمر حنظلة بالظعن جميعاً، فوقفها خلف الناس. ثم قال يا معشر بكر بن وائل! قاتلوا عن ظعنكم أو دعوا. إن النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء وابدأوهم بالشدة، وقال أحد الأضياف، يا بنى شيبان! لا تستهدفوا هذه الأعاجم فتهلككم بنشابها، ولكن لتكردسوا كراديس، فيشد عليهم كردوس فإذا أقبلوا عليه شد الآخر.

ثم قال هانئ بن مسعود: يا قوم! هالك معذور خير من ناج مغرور إن الجزع لا يرد القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية استقبال الموت خير من استدباره. الطعن فى الثغور أكرم منه فى الأعجاز والظهور: يا آل بكر قاتلوا، فما للمنايا من بد

ثم إن القوم اقتتلوا صدر نهارهم أشد قتال رآه الناس إلى أن زالت الشمس

وضرب الله وجوه الفرس، فانهزموا وتبعهم بكر بن وائل يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السواد ودخلوه فلم يفلت منهم كبير أحد. وأقبلت بكر على الغنائم، فقسموها بينهم وقسموا تلك اللطائم[1] بين نسائهم.

وأول من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياس بن قبيصة.. وكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيشه إلا نزع كتفه. فلما أتاه إياس سأله عن الخبر فقال: هزمنا بكر بن وائل، فأتيناك بنسائهم. فأعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة. ثم استأذنه إياس عند ذلك وقال: إن أخي مريض بعين التمر، فأردت أن آتيه، فأذن له. فترك فرسه ولحق بأخيه.

ثم أتى رجل من أهل الحيرة إلى كسرى وهو بالخورنق وسأله: هل دخل علي الملك أحد؟ فقيل له: نعم إياس بن قبيصة. فقال: ثكلت إياسا أمه. وظن أنه قد حدثه بالخبر فدخل عليه. فحدثه بهزيمة الفرس وقتلهم، فأمر به فنزعت كتفاه.

---

(١) اللطائم : أوعية المسك كما في القاموس

سيف بن ذى يزن

لما آل حكم اليمن إلى أبرهة مال إلى الظلم والاستبداد والاغتصاب، وكان فيها من سلالة الملك «ذى نواس» اسمه «ذو يزن» فكانت له امرأة على جانب عظيم من الجمال والكمال، فاغتصبها أبرهة من زوجها ولم يستطع «ذو يزن» احتمال العار. فهرب من اليمن وعاش مستخفيا يحاول أن يقهر عدوه ويثأر لشرفه، ولكنه مات قهراً وكمداً قبل أن يصل إلى غايته.

كان اسم زوجة ذى يزن ريحانة وكان لها طفل اسمه «سيف» وقد عاش سيف مع أمه فى بيت أبرهة، على اعتقاد منه أنه ابن أبرهة. وقد ولدت ريحانة غلاماً آخر من أبرهة اسمه «مسروق» ولما كبر الطفلان وصارا يلعبان معاً حدث مرة أن سب مسروق أبا سيف، فتكدر سيف من فعل أخيه وأخبر أمه، متعجباً كيف يشتم الولد أباه. وقد تساقطت دموع الأم وغصت بريقها، إذا أصبحت مضطرة للإفضاء لولدها بالحقيقة المرة والحكاية الأليمة.

أعلمت ريحانة سيفاً أنه من ملوك حمير العظام، وأن مسروقاً من أبناء الحبش الغرباء المغتصبين، وإنه ابن قاهر أبيه ومشرده من أوطانه. ولكنها فى نفس الوقت صبرت ابنها وهدأته إلى أن يحين الوقت المناسب. فصبر حتى آل حكم اليمن إلى مسروق..

وخرج سيف بن ذى يزن إلى قيصر الروم «يوستينيانوس الثانى» ـ وطلب منه أن ينصره على الحبشة، فأبى وقال: الحبشة على دينى ودين أهل مملكتى، وأنتم على دين يهود، فخرج من عنده بائساً عائداً إلى كسرى «أنوشروان»، فانتهى إلى النعمان بن المنذر بالحيرة، فدخل عليه، فأخبره بما لقى قومه من الحبشة. فقال: أقم فإن لى على الملك كسرى أذناً فى كل سنة، وقد حان ذلك.

فلما خرج النعمان أخرج معه سيفاً، فأدخله على كسرى فقال: غلبنا الأحباش على بلادنا، وأنا أقرب إليك منهم لأنى أبيض وأنت أبيض وهم سودان، فقال كسرى بلادك بعيدة ولا أبعث معك جيشاً فى غير منفعة ولا أمر أخافه على مملكتى

فلما أيأسه من النصر أمر له بعشرة آلاف درهم وكساه فلما خرج بها من باب كسرى نثرها بين الصبيان والعبيد. فرأى ذلك أصحاب كسرى، فقالوا ذلك له، فأرسل إليه: لم صنعت بجائزة الملك... تنثرها للصبيان والناس؟ فقال سيف: وما أعطانى الملك؟ جبال أرضى ذهب وفضة. جئت إلى الملك ليمنعنى من الظلم، ولم آته ليعطينى الدراهم، ولو أردت الدراهم كان ذلك فى بلدى كثيراً... فقال كسرى: أنظر فى أمرك.

فخرج سيف على طمع، وأقام عنده، فجعل كلما ركب كسرى عرض له، فجمع كسرى «مرازبته» وقال لهم: ما ترون فى هذا العربى، وقد رأيته رجلا جلداً. فقال قائل منهم: إن فى السجون قوماً قد سجنهم الملك فى موجدة عليهم فلو بعثهم الملك معه! فإن قتلوا استراح منهم وظفر بما يريد هذا العربى فهو زيادة فى ملك الملك.

قال كسرى: هذا الرأى. وأمر بهم فأحضروا، وكانوا ثمانمائة رجل، فولى أمرهم رجلا معهم يقال له «وهراز» وكان رامياً شجاعاً، فى مكانة فى الفرس، فجهزهم وأعطاهم سلاحاً، وحملهم فى البحر فى ثمانى سفن. فغرقت سفينتان وبقى ستمائة رجل، فأرسلوا إلى سواحل عدن.

فلما أرسلوا قال «وهراز» لسيف: ما عندك! فقد جئنا بلادك! قال سيف: ما شئت من رجل عربى وقوس عربى، ثم اجعل رجلى مع رجلك حتى نموت جميعاً، أو نظفر جميعاً ... قال وهراز: أنصفت.

فاستجلب سيف من استطاع من اليمن. ثم تقدموا إلى مسروق بن أبرهة وقد سمع بهم مسروق، وجمع جنده من الحبشة وسار إليهم، والتقى العسكران، وجعلت أمداد اليمن تصل إلى سيف. وقتل ابن وهراز وازداد وهراز على الحبشة حنقاً. فوتر قوسه ـ وكانت كقوس عولس لا يقدر أن يوترها غيره ـ وقال: انظروا أين ترون ملككم؟ قال سيف أرى رجلا قاعداً على فيل، وتاجه على رأسه، بين عينيه ياقوتة حمراء. ثم رماه النشابة، فصكت الياقوتة التى بين عينيه وخرقت رأسه وخرجت من قفاه.

وحملت العرب والفرس، وانهزمت الحبشة فى كل وجه، وأقبل وهراز يريد

أن يدخل صنعاء، ولما دنا من بابها رآه صغيراً، فقال لا تدخل رايتى منكسة؛ اهدموا الباب فهدم باب صنعاء ودخل ناصباً رايته التى كانت مرفوعة بين يديه فقال سيف ذهب ملك حمير آخر الدهر، لا يرجع إليهم أبداً

ملك وهراز اليمن وقهر الحبشة، وكتب إلى كسرى يخبره إنى قد ملكت للملك اليمن، وبعث بجوهر وعنبر ومال وعود زباد[1] فكتب كسرى يأمره أن يملك سيفاً، وأن يرجع هو إلى كسرى. فأطاع وهراز أمر الملك وخلف سيفا على اليمن.

فلما خلا سيف باليمن وملكها عدا على الحبشة وجعل يقتل رجالها ويبقر نساءها عما فى بطونها، حتى أفناها إلا بقايا منها اتخذهم خولا وحرساً، يحملون الحراب بين يديه. حتى ركب يوما، وتلك الحبشة تحمل حرابها وتسعى بين يديه، حتى إذا كان وسطا بينهم مالوا عليه بحرابهم فطعنوه بها حتى قتلوه.

ثم رجع الفرس إلى اليمن وحكموها إلى أن ظهر الإسلام فدخلت اليمن فى طاعة النبى صلحا.

---

(١) الزباد مادة عطرية تتخذ من حيوان أكبر من القط بقليل.

حياة فـــارس

قال الفضل بن يزيد. بينما أنا أدور فى بعض أحياء العرب، إذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها، وهى آخذة بيد غلام، فما رأيت مثله فى حسنه: له ذؤابتان كالسبج[1] المنظوم، وهى تعاتبه بلسان رطب، وكلام عذب، تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وهو يبتسم فى وجهها، قد غلب عليه الحياء والخجل، لا يرد جوابا.

فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت. فرد على السلام، فوقفت أنظر إليهما. فقالت يا حضرى ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع، وما أعرف من أمر هذا الغلام. فقالت: يا حضرى إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من نظره. فقلت: قد شئت ـ يرحمك الله ـ

فقالت: حملته والرزق عسير، والعيش نكد، حملاً خفيفا، حتى مضت له تسعة أشهر. وشاء الله أن أضعه، فوضعته خلقاً سوياً. فوربك ما هو إن صار ثالث أبويه، حتى أفضل الله وأعطى. وآثر من الرزق بما كفى وأغنى. ثم أرضعته حولين كاملين. فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أسد، أقيه برد الشتاء وحر الهجير. حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب، فحفظه القرآن، فتلاه، وعلمه الشعر فرواه. ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده.

فلما أن بلغ مبلغ الرجال واشتد عظمه وكمل خلقه، حملته على عتاق الخيل، فتفرس وتمرس، ولبس السلاح. ومشى بين بيوتات الحى الخيلاء. وأخذ فى قرى الضيف وإطعام الطعام. وأنا عليه خائفة. أخاف عليه من العيون أن تصيبه.

فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب. فخرج فتيان الحى فى طلب ثأر لهم. وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج. حتى إذا معن القوم

---

(١) السبج الخرز الأسود كما فى القاموس.

ولم يبق فى الحى غيره ـ ونحن آمنون وادعون فما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح، حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو. وما هى إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها. وهو يسألنى عن الصوت، وأنا أستر عليه الخبر- إشفاقاً عليه وضناً به. حتى إذا علت الأصوات، رمى دثاره[1]، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه. ولبس لأمة[2] حربه، وأخذ رمحه بيده. ولحق حماة القوم. فطعن أقربهم إليه، فرمى به ولحق أبعدهم عنه، فقتله. فانصرفت وجوه الفرسان إليه فرأوه صبياً صغيراً، لا مدد وراءه، فحملوا عليه. فأقبل يؤم البيوت، حتى إذا مدهم وراءه. وامتدوا فى أثره عطف عليهم. ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق. ومرق كما يمرق السهم. وناداهم: خلوا عن المال! فو الله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه!

فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه. وقد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة فوثب عليهم، وهو يهدر كما يهدر الفحل من الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها. ولا كتيبة إلا مزقها. حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه. ثم ساق المال وأقبل به، فكبر القوم عند رؤيته. وفرح الناس بسلامته.

فو الله ما رأينا يوم قط كان أسمح صباحاً وأحس رواحاً من ذلك اليوم.

(١) الدثار: ما فوق الشعار من الثياب كما فى القاموس.

(٢) اللأمة: الدرع كما فى القاموس.

حرب البسوس

لقد عز وساد كليب بن وائل فى ربيعة وبغى بغيا شديدا حتى أن ربيعة كانوا لا يرحلون ولا ينزلون إلا بأمره. وبلغ من عزه وبغيه أنه اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل منزلاً به كلأ قذف ذلك الجرو فيه، فيعوى، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه، وكان يفعل هذا بحياض الماء، فلا يردها أحد إلا باذنه.

وبلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته. وكان يقول: وحش أرض كذا فى جوارى، فلا يهاج. وكان يحمى الصيد ويقول صيد ناحية كذا فى جوارى، فلا يصيد أحد منه شيئاً. وكان إذا حمى حمىً لا يطأه إنسان ولا بهيمة.

ويقال إن قبرة طارت ذاتٍ يوم عن بيضها أمامه، فقال لها أبياتاً منها:

لا ترهبى خوفاً ولا تستنكـرى　　　قد ذهب الصياد عنك فأبشرى

خلا لك الجو فبيضى واصفرى　　　فأنت جارى من صروف الحذر

وكانت لا تورد إبل مع إبله ولا توقد نار مع ناره، لذلك كانت العرب تقول «أعز من كليب وائل».

نزلت البسوس على ابن اختها جساس بن مرة، ومعها ناقتها سراب. وخرج كليب يتعهد الإبل ومراعيها فى أحد الأيام وكانت إبله وإبل جساس مختلطة. نظر كليب إلى سراب فأنكرها، فقال له جساس: هذه ناقة خالتى البسوس.

فقال كليب: لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحمى. فقال جساس: لا ترعى إبلى مرعى إلا وهذه معها. فقال كليب: لئن عادت لأضعن سهمى فى ضرعها. فقال جساس: لئن وضعت سهمك فى ضرعها لأضعن سنان رمحى فى صلبك ثم افترقا.

وبينما جليلة بنت مرة ـ أخت جساس ـ تغسل رأس كليب زوجها وتسرحه ذات يوم قال لها: من أعز وائل! فصمتت، فأعاد عليها، فلما أكثر عليها قالت:

أخواى، جساس وهمام. فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة[1] البسوس خالة جساس وجارة بنى مرة، فقتله. . . .فأغمض بنو مرة على ما فيه وسكتوا على ذلك.

ثم لقى كليب ابن البسوس وقال: ماذا جرى بفصيل ناقتكم! فأجابه: قتلته وأخليت لنا لبن أمه. . . فأغمضوا على هذه أيضاً.

ثم إن كليباً أعاد على امرأته فقال: من أعز وائل! فقالت: أخواى فأضمرها وأسرها فى نفسه وسكت.

وكان كليب كلما أراد الخروج بعد ذلك إلى الحمى منعته جليلة وناشدته الله أن لا يقطع رحمه. وكانت تنهى أخاها جساساً أن يسرح إبله. . . ومرت إبل لكيب «بسراب» ناقة البسوس، وهى معقولة بفناء بيتها بجوار جساس. فلما رأت سراب الإبل نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الإبل واختلطت بها.

وخرج كليب فى ذلك اليوم إلى الحمى، فوجد بيض القبرة قد وطئتها سراب، فكسرتها، فغضب وأمر غلامه أن يرمى ضرعها، فخرقه بسهم، وولت سراب، ولها عجيج، حتى بركت بفناء جساس، واختلط دمها بلبنها. وراحت الرعاة إلى جساس وأخبروه بالأمر. فقال: احلبوا للبسوس مكيالى لبن بمحلبها، ولا تذكروا لها من هذا شيئاً ثم أغمضوا عليها أيضاً.

ولما رأت البسوس ما أصاب الناقة ضربت وجهها ونزعت خمارها وصاحت: واذلاه!!. . واجاراه!! فقال لها جساس: اسكتى ولك بناقتك ناقة أعظم منها. فأبت أن ترضى.

ولما كان الليل أنشأت تخاطب سعداً أخا جساس وترفع صوتها لتسمع جساساً:

أيا سعداً لا تغرر بنفسك واحترز	فإنى فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى إليك فإننى	محاذرة أن يغدروا ببنياتى
لعمرك لو أصبت فى دار منقر	لما ضيم سعد وهو جار لا بياتى
ولكنى أصبحت فى دار معشر متى	يعد فيها الذئب يعد على شاتى

(١) الإرب. الدهاء كما فى القاموس.

فقال جساس: اسكتى يا خالة، سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة سأقتل «علالا» ـ وهو فحل إبل كليب ـ وقد أراد جساس بهذا القول كليباً نفسه.

ومكث جساس يراقب كليباً حتى بلغه ذات يوم أنه خرج وليس معه سلاح. فتبعه وصرخ به: يا كليب! الرمح وراءك.. وكان كليب لا يلتفت إلى ورائه من الكبرياء. فقال: إن كنت صادقاً فأتنى من أمامى.. ولم يلتفت إليه. فطعنه جساس، فأرداه. ثم احتز رأسه. وكان ذلك فى سنة ٤٩٤م.

ولما عاد إلى الديار سأله أبوه: ما وراءك يا بنى! قال: طعنت طعنة لتشغلن شيوخ وائل زمنا، قال مرة: أقتلت كليباً؟.. إذن نسلمك بجريرتك ونريق دمك فى صلاح العشيرة. فلا أنا منك ولا أنت منى، فو الله لبئس ما فعلت: فرقت جماعتك وأطلت حربها.

وكان همام، أخو جساس القاتل، ينادم فى ذلك الوقت المهلهل، أخا كليب المقتول، ويعاقر معه الخمرة، فجاءته جارية تخبره الخبر. فقال المهلهل: ما قالت لك الجارية؟.. وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً. فذكر له ما قالت الجارية. فقال المهلهل: اليوم خمر وغداً أمر. وشرب همام وهو خائف حذر. ولما سكر رفيقه عاد إلى قومه الذين بدأوا يتأهبون للقتال.

وأما المهلهل فإنه رجع إلى الحى، فرأى القوم يعقرون خيولهم ويكسرون رماحهم ويحطمون سيوفهم. فقال لهم: ويحكم! ما الذى دهاكم لقد ذهبتم شر مذهب، تعقرون خيولكم حين احتجتم إليها وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه!

ولما أصبح المهلهل غدا إلى أخيه، فدفنه وقام على قبره يرثيه شعراً:

دعوتك يا كليب فلم تجبنى	وكيف يجيب البلد القفار
سقاك الغيث إنك كنت غيثاً	ويسراً حين يلتمس اليسار
خذ العهد الأكيد على عمرى	بتركى كل ما حوت الديار
وهجرى الغانيات وشرب كأس	ولبس جبة لا تستعار
ولست بخالع درعى وسيفى	إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تبيد سراة بكر	فلا يبقى لها أبداً آثار

ثم بعد ذلك هجر اللهو وحرم الشراب على نفسه وجز شعره وقصر ثوبه وأرسل من أشراف قومه. فأتوا مرة وهو فى نادى قومه وقالوا له: إنكم أتيتم أمراً عظيماً بقتلكم كليباً بناب من الإبل، فقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة بيننا وبينكم. وإنا نعرض عليك خلالاً أربعاً، لك فيها مخرج ولنا بها مقنع.

فقال مرة: وما هى؟

قالوا: تحيى كليباً أو تدفع لنا جساساً فنقتله به أو هماماً فإنه كفء له أو تمكنا من نفسك... فإن فيك وفاء لدمه.

فأجابهم مرة، أما إحيائى كليباً فلست قادراً عليه. وأما دفعى جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه، فلا أدرى أى بلاد قصد. وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، كلهم فرسان قومهم، فلن يسلموه بجريرة غيره. وأما أنا فما هو أن تجول الخيل جولة حتى أكون أول قتيل بينها. فلا أتعجل الموت.

ولكن لكم عندى خصلتان: أما إحداهما فهؤلاء أبنائى الباقون، فخذوا أيهم شئتم واقتلوه بصاحبكم. وأما الأخرى فإنى أدفع لكم ألف ناقة، سود الحدق، حمر الوبر.

فغضب القوم وقالوا: قد أسأت ببذل هؤلاء ثم أتسومنا اللبن بدم كليب.

فتفرقوا ووقعت الحرب بين ربيعة وبكر - ابنى وائل - ودامت أربعين سنة بسبب ناقة البسوس، لذلك قيل «أشأم من البسوس». وقد استنكر هذه الحرب الحرث بن عباد، رئيس بكر، واستفظعها ووقف على الحياد، وقال: «لا ناقة لى فيها ولا جمل» فذهبت مثلا.

ولما قتل كليب كانت امرأته حاملا. رجعت إلى أهلها فولدت غلاماً سمته «الهجرس» رباه جساس، حتى كان لا يعرف أبا غيره وزوجه ابنته، وصدف أن وقع بين الهجرس وبين رجل من بنى بكر كلام، فقال له البكرى: ما أنت بمنته حتى نلحقك بأبيك! فأمسك عنه ودخل إلى أمه باكياً. فسألته عما به، فأخبرها الخبر.

ولما آوى إلى فراشه ونام تنفس تنفساً أحست منه امرأته لهيب نار. فقامت

فزعة وأخذتها رعدة حتى دخلت على أبيها فقصت عليه قصة الهجرس فقال جساس: ثائر ورب الكعبة.

وبات جساس على مثل الجمر، حتى أصبح، فأرسل إلى الهجرس، فأتاه. فقال له: إنما أنت ولدى، وقد زوجتك ابنتى. وقد كانت الحرب فى أبيك زماناً طويلا، حتى كدنا نفنى، وقد اصطلحنا وتحاجزنا، وقد رأيت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح، وأن تنطلق حتى نأخذ عليك مثلما أخذ علينا وعلى قومنا.

فقال الهجرس: أنا فاعل. ولكن مثلى لا يأتى قومه إلا بدرعه وفرسه فحمله جساس على فرس وأعطاه درعاً. وخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما فقص عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا إليه من العافية. ثم قال: وهذا الفتى ابن أختى قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ويعقد فيما عقدتم.

فلما قربوا إلى الدم وقاموا إلى العقد أخذ الهجرس بوسط رمحه قال: وفرسى وأذنيه ورمحى ونصليه وسيفى وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه. ثم طعن جساساً فقتله ولحق بقومه، فكان جساس آخر قتيل فى بكر بن وائل.

ولما جمع عمرو بن هند ملك الحيرة بكراً وتغلب، ابنى وائل، وأصلح بينهم أخذ من الحيين رهنا! من كل حى مئة غلام، ليكف بعضهم عن بعض وكان أولئك الرهن يكونون معه فى غزوه ومسيره. فأصابتهم سموم فى بعض مسيرهم، فهلك عامة التغلبيين وسلم البكريون. فقالت تغلب لبكر: لقد غدرتم بأبنائنا ولزمكم دمهم، فادفعوا لنا دياتهم. فأبت بكر.

فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم وأخبروه بما جرى، فقام يدافع عنهم وجاءت بكر بالنعمان بن هرم، وتنافس الشاعران فى حضرة الملك، وكان يؤثر بنى تغلب على بنى بكر، غضب وقال: يا نعمان أيسرك أنى أبوك. قال: لا، ولكن وددت أنك أمى. فغضب عمرو بن هند غضباً شديداً حتى هم بالنعمان.

وهنا تنحى النعمان وقام الحارث بن حلزة الشكرى وارتجل معلقته المشهورة دفاعاً عن بكر وتوكأ على قوسه وكان به برص فأمر الملك بوضع الستار بينه وبينه،

فلما تكلم أعجب الملك بمنطقه، فقال أدنوه منى. . . ولم يزل الشاعر يقول فيبرع والملك يقول أدنوه أدنوه حتى أمر بطرح الستر وأقعده معه قريبا منه لإعجابه به، وانقلب ابن هند على تغلب، وأصبح يتقصد إذلالهم.

قال عمرو بن هند ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحدا من العرب تأنف من خدمة أمي! فقالوا: نعم!أم عمرو بن كلثوم. قال: ولم. قالوا: لأن أباها مهلهل ابن ربيعة وعمها كليب بن وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك فرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه.

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يصطحب أمه معه لتزور أمه.

فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة فى جماعة من بنى تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظعن من بنى تغلب وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رواقه. ودخلت ليلى وهند فى قبة من جانب الرواق.

وكانت هند عمة امرئ القيس الشاعر المشهور وكانت أم ليلى بنت أخى فاطمة بنت ربيعة التى هى أم امرئ القيس. وبينهما هذا النسب.

وطلب عمرو بن هند من أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف. فقالت هند: ناولينى يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليه وألحت، فصاحت ليلى: وأذلاه! يا لتغلب!

فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم. فثار الدم فى وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند، فعرف الشر فى وجهه. فوثب ابن كلثوم إلى سيف لابن هند معلق بالرواق، فضرب به رأس ابن هند. ونادى فى بنى تغلب، فانتهبوا ما فى الرواق، وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة[1].

---

(١) راجع: العقد الفريد (٣/٣٤٧ـ ٣٤٩) بنحوه.

سخاء العرب

سئل قيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟، قال: نعم. نزلنا بالبادية على امرأة... فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان... فجاء زوجها بناقة، فنحرها وقال: شأنكم.

فلما كان من الغد جاءنا بأخرى، فنحرها، وقال: شأنكم. فقلنا: ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل! فقال أنا لا أطعم ضيفانى البائت... فبقينا عنده أياماً والسماء تمطر، وهل يفعل ذلك. فلما أردنا الرحيل وضعنا مائتى دينار فى بيته، وقلنا للمرأة: اعتذرى لنا إليه. ومضينا.

فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام! أعطيتمونا ثمن قرانا!ثم لحقنا وقال: خذوها وإلا أطعنتكم برمحى هذا. فأخذنا وانصرفنا[1].

الطبع والتطبيع

حكى عن بعض الأعراب قال: كنت فى سفر، فضللت الطريق، فرأيت بيتاً فى الفلاة، فأتيته، فإذا به أعرابية. فلما رأتنى قالت: من تكون؟ قلت: ضيف قالت أهلا ومرحباً بالضيف، نزلت على الرحب والسعة.

فنزلت... فقدمت لى طعاما، فأكلت، وماء فشربت. فبينما أنا على ذلك إذا أقبل صاحب البيت. فقال من هذا؟ فقالت ضيف، فقال لا أهلا ولا مرحبا. ما لنا وللضيف!.

فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتى وسرت. فلما كان من الغد رأيت فى الفلاة بيتا. فقصدته، فإذا فيه أعرابية. فلما رأتنى قالت: من تكون؟ قلت:

---

(٢) سجال: يقال: سجل: مبالغة والحرب سجال: أى سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء كما فى

ضيف. قالت . لا أهلا ولا مرحبا بالضيف.

فبينما هى تكلمنى إذا أقبل صاحب البيت. فلما رآنى قال: مرحبا وأهلا بالضيف. ثم أتى بطعام حسن. فأكلت، وماء فشربت، فتذكرت ما بالأمس فتبسمت فقال: مم تبسمك؟ فقصصت ما اتفق لى مع تلك الأعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته. فقال لا تعجب، إن تلك الأعرابية التى رأيتها هى أختى. وأن بعلها أخو امرأتى هذه. فغلب على كل طبع أهله[1].

القاموس. قلت: المراد: تارة لك وتارة عليك.

يزيد بن معاوية ... والكلاب

كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفاً بالصيد.. ولا يزال لاهياً به. وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه.

وقيل أن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية. وجعلها فى خزنة بيت المال. فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد دمشق، يشكو حاله إلى يزيد. وكانت دمشق فى تلك الأيام فيها سرير الملك.

فلما وصل الرجل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد، فعرفوه أنه فى الصيد، فكره أن يدخل دمشق وليس يزيد حاضراً بها. فضرب مخيمه ظاهر المدينة، وأقام به ينتظر عودة يزيد من الصيد.

فبينما هو فى بعض الأيام جالساً فى خيمته، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه الخيمة وفى قوائمها الأساور من الذهب وعليها جل يساوى مبلغاً كبيراً وقد بلغ منها العطش والتعب. وقد كادت تموت عطشاً وتعباً. فعلم أنها ليزيد، وأنها شذت منه. فقام إليها وقدم لها ماء وتعهدها بنفسه، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل، وعليه زى الملوك. وقد علته غبرة.

فقام إليه وسلم عليه، فقال له: أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع؟ فقال: نعم يا مولانا، ها هى فى الخيمة قد شربت ماء واستراحت وقد كانت لما جاءت إلى هاهنا على غاية من العطش والتعب.

فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر إلى الكلبة، وقد استراحت، فجذب بحبلها ليخرج. فشكى الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه عبيد الله بن زياد. فطلب دواة وكتب له برد ماله وخلعه سنية. وأخذ الكلبة وخرج. فرجع الرجل من ساعته إلى الكوفة ولم يدخل دمشق.

عبد الملك وعاتكة

كان عبد الملك بن مروان من أشد الناس حباً لعاتكة زوجته.. وعاتكة هى ابنة يزيد بن معاوية، وأم ولده يزيد بن عبد الملك. فغضبت عاتكة مرة على عبدالملك وكان بينهما باب، فحجبته وأغلقت ذلك الباب.

فشق غضبها على عبد الملك، وشكا إلى رجل من خاصته وهو عمر بن بلال الأسدى، فقال لعبد الملك: مالى عندك إن رضيت؟ قال عبد الملك: حكمك.

فأتى عمر عاتكة وجعل يتباكى، وأرسلها إليها بالسلام، فخرجت إليه حاضنتها ومواليها وجواريها، فقلن: مالك! قال: فزعت إلى عاتكة لأرجوها. فقد علمت مكانى من أمير المؤمنين معاوية ومن أبيها بعده.

قلن: مالك! قال: ابناى لم يكن لى غيرهما، فقتل أحدهما صاحبه.

فقال أمير المؤمنين: أنا قاتل الآخر بأخيه. قلت: أنا الولى وقد عفوت. قال: لا أعود الناس هذه العادة. فرجوت أن ينجى الله هذا على يدها.

فدخلن عليها، فذكرت ذلك لها. فقالت: وكيف أصنع مع غضبى عليه وما أظهرت له؟ قلن: إذاً والله يقتل!

فلم يزلن حتى دعت بثيابها، فأجمرتها[1]، ثم خرجت نحو الباب. فأقبل حديج الخصى. فقال: يا أمير المؤمنين هذه عاتكة قد أقبلت. قال: ويلك ما تقول؟ قال: قد والله طلعت.

فأقبلت وسلمت، فلم يرد. فقالت: والله لولا عمر ماجئت. إن أحد ابنيه تعدى على الآخر، فقتله، فأردت قتل الآخر، وهو الولى وقد عفا.

قال: إنى أكره أن أعود الناس هذه العادة. قالت: أنشدك الله يا أمير المؤمنين! فقد عرفت مكانه من أمير المؤمنين معاوية ومن أمير المؤمنين يزيد، وهو ببابى.

فما تزال به حتى أخذت برجليه فقبلتها. فقال: هولك. ولم يبرحا حتى

---

(١) اجمرتها: بخرتها بالطيب.

جعل اصطلحا.

ثم راح عمر بن بلال إلى عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين كيف رأيت؟ قال: رأينا أثرك. فهات حاجتك. قال. مزرعة بعدتها وما فيها وألف دينار وفرائض لولدى وأهل بيتى وعيالى. قال: ذلك لك.

يقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد :

لما تجهز عبد الملك وأراد الخروج لحرب مصعب بن الزبير أقبلت عاتكة فى جواريها وقد تزينت بالحلى. فقالت يا أمير المؤمنين! لو قعدت فى ظلال ملكك ووجهت إليه (كلباً من كلابك) لكفاك أمره. فقال: هيهات. أما سمعت قول الأول:

قوم إذا ما غزوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهـار

فلما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواريها. فقال: عبد الملك: قاتل الله ابن أبى ربيعة! كأنه ينظر إلينا حين يقول:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همـه ... حـصان عليها نظـم در يزينهـا

نهته. فلما لم تر النهى عاقه ... بكـت. فبكى مما دهاها قطينها

خيانة الطريق

كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان، أنه يعرض له ضيعة بواسط، فى مغرم لزمه للخليفة. فحمل وكيلاً له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير. وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر لى هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك ما فى هذا الخرج، وإلا فاكتب إلى أمدك بالمال.

فخرج. فلما أصحر عن البيوت، لحق به أعرابى راكب على حمار، معه قوس وكنانة. فقال له: إلى أين تتوجه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك فى الصحبة؟ قال: نعم.

فسارا حتى فوزا، فعنت لهما ظباء. فقال الأعرابى: أى هذه الظباء أحب إليك - المتقدم منها أو المتأخر، فأذكيه لك؟ قال له: المتقدم. فرماه، فخرمه بالسهم، فاشتويا وأكلا. واغتبط الرجل بصحبة الأعرابى. . . . ثم عن زفة قطا. فقال: أيها تريد فأصرعها لك؟ فأشار إلى واحدة منها. فرماها، فاقتصدها، ثم اشتويا وأكلا.

فلما انقضى طعامهما فوق له الأعرابى سهما. ثم قال له: أين تريد أن أصيبك؟ فقال له: اتق الله ربك واحفظ زمام الصحبة. قال: لابد منه. قال: اتق الله واستبقنى، ودونك البغل والخرج، فإنه مترع مالاً. قال: فاخلع ثيابك، فانسلخ من ثيابه ثوباً ثوباً، حتى بقى مجرداً. قال له: اخلع أمواقك[1] وكان لابساً خفين طائفين. فقال له: اتق الله فى ودع الخفين أتبلغ بهما من الحر، فإن الرمضاء تحرق قدمى. قال: لابد منه. قال: فدونك الخف فاخلعه.

فلما تناول الخف ذكر الرجل خنجراً كان معه فى الخف فاستخرجه، ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته.

(١) الموق: خف غليظ يلبس فوق الخف كما فى القاموس.

فى بيت من يريد قتله

عندما أفضت الخلافة إلى بنى العباس اختفت منهم جميع رجال بنى أمية، وكان منهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك. وكان رجلاً عالماً، كاملا أديباً، وهو مع ذلك فى سن الشبيبة. فأخذوا له أمانا من السفاح. فأعطاه أبو العباس السفاح أمانا وأكرمه وقال له: الزم مجلسى.

وفى يوم ما . . قال أبو العباس لإبراهيم بن سليمان بن عبد الملك حدثنى عما مر بك فى استخفائك من العدو. فقال سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين؛ كنت مختبئاً فى الحيرة بمنزل فى شارع على الصحراء. فبينما كنت على ظهر ذلك البيت، إذا بصرت بأعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة. فتخيلت أنها تريدنى.

فخرجت مسرعاً من الدار متنكراً، حتى أتيت الكوفة، وأنا لا أعرف أحداً أختفى عنده. فبقيت فى حيرة، فنظرت، وإذا أنا بباب كبير واسع الرحبة. فدخلت فيه. فرأيت رجلاً وسيماً، حسن الهيئة مقبلاً على الرحبة، ومعه أتباعه. فنزل عن فرسه، والتفت، فرآنى. فقال لى: من أنت وما حاجتك؟ فقلت رجل خائف على همه وجاء يستجير فى منزلك.

فأدخلنى منزله وصيرنى فى حجرة تلى حرمه. وكنت عنده فى كل ما أحبه من طعام وشراب ولباس. وهو لا يسألنى عن شىء من حالى، إلا أنه كان يركب فى كل يوم من الفجر ويمضى ولا يرجع إلا قريب الظهر. فقلت له يوماً: أراك تدمن الركوب كل يوم. لماذا ذلك؟ فقال لى: إن إبراهيم بن سلمان بن عبد الملك كان قد قتل أبى ظلماً. وقد بلغنى أنه مختف فى الحيرة، فأنا أطلبه يومياً، لعلى أجده وأدرك منه ثار أبى.

فلما سمعت ذلك، يا أمير المؤمنين كثر تعجبى. وقلت فى نفسى: إن القدر ساقنى إلى حتفى فى منزل من يطلب دمى. فوالله يا أمير المؤمنين إنى كرهت الحياة. ثم إنى سألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فأخبرنى فعلمت أن كلامه

حق. وأنا الذى قتلت أباه. فقلت له: يا هذا إنه قد وجب على حقك، ولمعروفك لى يلزمنى أن ادلك على خصمك الذى قتل أباك، وأقرب عليك الخطوة، فقال: ومن ذاك. فقلت له: أنا إبراهيم بن عبد الملك، وأنا قاتل أبيك، فخذ بثأرك.

فتبسم منى وقال: هل ضجرك الاختفاء والبعد عن منزلك وأهلك، فأحببت الموت. فقلت: لا والله، ولكنى أقول لك الحق، وإنى قتلته فى يوم كذا من أجل كذا.

فلما سمع الرجل كلامى هذا، وعلم صدق قولى، تغير لونه واحمرت عيناه. ثم فكر طويلاً والتفت إلى وقال أما أنت فسوف تلقى أبى عند حاكم عادل فيأخذ بثأرك منك. وأما أنا فلا أخفر ذمتى. ولكنى أريد أن تخرج عنى، فإنى لست آمن عليك من نفسى.

ثم أنه أعطانى ألف دينار فأبيت أخذها، وانصرفت عنه. فهذا يا أمير المؤمنين أكرم رجل رأيته وسمعت عنه فى عمرى ـ بعد أمير المؤمنين.

جابر عثرات الكرام

كان فى أيام سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمة بن بشر من بنى أسد، مشهور بالمروءة والكرم والمواساة. وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يواسيهم، ويتفضل عليهم، فواسوه حيناً، ثم ملوه. فلما لاح له تغيرهم جاء امرأته. وكانت ابنة عمه، فقال لها: يا بنت العم. . . .قد رأيت من أخوتى تغيراً، وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتينى الموت. ثم أغلق عليه بابه، وأقام يتقوت بما عنده، حتى نفذ، وبقى حائراً فى حاله.

وكان عكرمة الفياض والياً على الجزيرة. . . فبينما هو فى مجلسه، وعنده جماعة من أهل البلد، إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر، فقال عكرمة: ما حاله؟ فقالوا: صار فى أسوأ الأحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته. فقال عكرمة الفياض ـ وما سمى الفياض إلا للإفراط فى الكرم ـ فما وجد خزيمة بن بشر مواسياً ولا مكافئا؟ وأمسك عن ذلك.

فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار، فجعلها فى كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته، وخرج سراً من أهله. فركب ومعه غلام واحد يحمل المال. ثم سار حتى وقف بباب خزيمة. فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه.

وتقدم إلى الباب وطرقه بنفسه، فخرج خزيمة، فقال له: أصلح بهذا شأنك، فتناوله، فرآه ثقيلاً، فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال: من أنت؟ جعلت فداءك. . . . قال له: ما جئت فى هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفنى. قال خزيمة: فما أقبله أو تخبرنى من أنت. قال: أنا جابر عثرات الكرام. قال: زدنى. قال: لا. ثم مضى.

ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته، فقال لها: أبشرى فقد أتى الله بالفرج، فلو كان فى هذا فلوس كانت كثيرة، قومى فاسرجى، قالت: لا سبيل إلى السراج. ثم بات يلتمس الكيس، فيجد تحت يده خشونة الدنانير.

ورجع عكرمة إلى منزله، فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه، فأخبرت بركوبه منفرداً. فارتابت ولطمت خدها. فلما رآها على تلك الحالة قال لها: ما دهاك يا بنت العم؟ قالت: سوء فعلك بابنة عمك! أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة من الليل منفرداً عن غلمانه فى سر من أهله إلا إلى زوجة أو سرية، فقال: لقد علم الله ما خرجت لواحدة منهما فقالت: لابد أن تعلمنى. قال: فاكتميه إذا. قالت: أفعل. فأخبرها بالقصة على وجهها. ثم قال: أتحبين أن أحلف لك؟ قالت: لا. قد سكن قلبى.

ولما أصبح خزيمة صالح غرماءه وأصلح من حاله، ثم تجهز يريد الخليفة سليمان بن عبد الملك بفلسطين. فلما وقف ببابه، دخل الحاجب، فأخبره بمكانه، وكان مشهوراً بمروءته... وكان الخليفة به عارفاً. فأذن له. فلما دخل عليه وسلم بالخلافة، قال: يا خزيمة ما أبطأك عنا؟ فقال: سوء الحال يا أمير المؤمنين. قال: فما منعك عن النهضة إلينا؟ قال: ضعفى. قال: فمن أنهضك قال: لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلا ورجل يطرق بابى وكان معه كيس ... وحكى له الحكاية من أولها إلى آخرها ـ فقال: هل عرفته؟ قال: لا والله، لأنه كان متنكراً وما سمعت منه إلا«جابر عثرات الكرام» فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته. وقال لو عرفناه لأعناه على مروءته. وقال: على بقناة. فأتى بها، فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض، وأجزل عطاياه، وأمره بالتوجه إلى الجزيرة.

فخرج خزيمة متوجهاً إليها. فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد، للقائه، فسلم عليه. ثم سارا جميعاً إلى أن دخل البلد. فنزل خزيمة فى دار الإمارة. وأمر أن يؤخذ عكرمة وأن يحاسب. فحوسب ففضل عليه مال كثير. فطلبه خزيمة بالمال. فقال: ما لى شىء منه سبيل. فأمر بحبسه. ثم بعث يطالبه. فأرسل إليه: إنى لست ممن يصون ماله بعرضه، فاصنع ما شئت. فأمر به، فكبل بالحديد، وضيق عليه، وأقام على ذلك شهراً... فأضناه ثقل الحديد وأضر به.

وبلغ ذلك ابنة عمه، فجزعت عليه واغتنمت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت: امضى الساعة إلى باب هذا الأمير فقولى عندى نصيحة، فإذا طلبت

منك فقولى: لا أقولها إلا للأمير خزيمة. فإذا دخلت عليه فسليه الخلوة فإذا فعل، فقولي له: ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك فى مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد! ففعلت ذلك.

فلما سمع خزيمة قولها قال: واسوأتاه. جابر عثرات الكرام غريمى؟

قالت: نعم. فأمر من وقته بدابته فأسرجت، وركب إلى وجوه أهل البلد فجمعهم، وسار بهم إلى باب الحبس، ففتح ودخل . فرأى عكرمة الفياض في الحبس متغيراً، قد أضناه الضر. فلما نظر عكرمة إلى خزيمة وإلى الناس أحشمه ذلك. فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى انكب على رأسه فقبله، فرفع رأسه إليه وقال: ما أعقب هذا منك؟ قال: كريم فعلك وسوء مكافأتى. قال: يغفر الله لنا ولك.

ثم أمر بفك قيوده وأن توضع فى رجليه. فقال عكرمة: ماذا تريد؟

قال: أريد أن ينالنى من الضر مثل ما نالك.

قال: أقسم بالله ألا تفعل.

فخرجا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة، فودعه عكرمة وأراد الانصراف.

فلم يمكنه من ذلك. قال. وما تريد؟. قال: أغير من حالك. وحيائى من ابنة عمك أشد من حيائى منك.

ثم أمر بالحمام فأخليت، ودخلا جميعاً. ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه. ثم خرجا، فخلع عليه، وحمل إليه مالا كثيراً ثم سار معه إلى داره، واستأذنه فى الاعتذار من ابنة عمه ـ فأذن له، فاعتذر إليها وتذمم من ذلك.

ثم سأله أن يسير معه إلى أمير المؤمنين، وهو يومئذ مقيم بالرملة. فأنعم له بذلك. فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك، فدخل الحاجب فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر، فراعه ذلك. وقال: والى الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا، مع قرب العهد به، ما هذا إلا لحادث عظيم.

فلما دخل عليه قال: ما وراءك يا خزيمة. قال: خير يا أمير المؤمنين.

قال. فما أقدمك؟ قال ظفرت بجابر عثرات الكرام. فأحببت أن أسرك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته. قال: ومن هو. قال: عكرمة الفياض. فأذن له فى الدخول . فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه.

وقال: يا عكرمة كان خيرك وبالا عليك. ثم قال له: اكتب حوائجك وما تختاره فى رقعة. فكتبها، وقضيت على الفور. ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف إليها من التحف . ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان. قال له: أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته.

قال: بل أرده إلى عمله يا أمير المؤمنين.

ثم انصرفا جميعاً. ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته[1].

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى (١٤٨ ـ ١٥١)

هارون الرشيد والأموى

رفع إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بنى أمية، عظيم المال، كثير الجاه، مطاع، له فى البلدان جماعة وأولاد ومماليك وموال، يركبون الخيول ويحملون السلاح ويغزون الروم، وأنه سمح جواد، كثير البذل والضيافة، وأنه لا يؤمن من فتق يبعد رتقه.

قال منارة صاحب الخلفاء: فعظم ذلك على الرشيد. وكان وقوف الرشيد على هذا الخبر وهو بالكوفة، فى بعض حجه فى ١٨٦ هـ . وقد عاد من الموسم وبايع للأمين والمأمون والمؤتمن أولاده. فدعانى وهو حال. قال: إنى دعوتك لأمر يهمني، وقد منعنى النوم. فانظر كيف تعمل. ثم قص علىّ خبر الأموى وقال: اخرج الساعة، ، فقد أعددت لك الجائزة والنفقة والآلة. ويضم إليك مائة غلام. واسلك البرية. وهذا كتابى إلى أمير دمشق. وهذه قيود، فادخل، فابدأ الرجل. فإن سمع وأطاع، فقيده وجئنى به، وإن عصى فتوكل به أنت ومن معك، وأنفذ هذا الكتاب إلى نائب الشام ليركب فى جيشه، ويقبضوا عليه وجئنى به. وقد أجلتك لذهابك ستاً ولمجيئك ستاً.

وهذا محمل تجعله فى شقة إذا قيدته، وتقعد أنت فى الشق الآخر. ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتينى به فى اليوم الثالث عشر من خروجك، فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها، وأهله وولده وحشمه وغلمانه، وقدر النعمة والحال والمحل، واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف، من ألفاظه من حين وقوع طرفك عليه إلى أن تأتينى به، وإياك أن يشذ عنك شىء من أمره.

فقال منارة: فودعته وخرجت وركبت الإبل، وسرت أطوى المنازل، أسير الليل والنهار، ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس الناس قليلاً. إلى أن وصلت إلى دمشق فى أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة. فكرهت الدخول ليلاً، فنمت بظاهر البلد، إلى أن فتح الباب. فدخلت على هيئتى، حتى أتيت دار الرجل، وعليه صف عظيم وحاشية كثيرة. فلم أستأذن، ودخلت بغير إذن.

فلما رأى القوم سألوا بعض غلمانى، فقالوا هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم فلما صرت فى صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً، رأيت فيه قوماً جلوساً، فظننت أن الرجل فيهم. فقاموا ورحبوا بى. فقلت أفيكم فلان؟ قالوا: لا، نحن أولاده. وهو فى الحمام. فقلت: استعجلوه.

فمضى بعضهم يستعجله، وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية، فوجدتها قد ماجت بأهلها موجاً شديداً.

فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل، بعد أن طال، واستربت به، واشتد قلقى وخوفى من أن يتوارى، إلى أن رأيت شيخاً، بزى الحمام، يمشى فى الصحن، وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان. وهم أولاده وغلمانه. فعلمت أنه الرجل. فجاء حتي جلس، فسلم على سلاماً خفياً. وسألنى عن أمير المؤمنين واستقامة أمره. فأخبرته كما وجب.

وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة، فقال: تقدم يا منارة، فكل معنا. فقلت: مالى إلى ذلك من حاجة. فلم يعاودنى. وأقبل يأكل هو ومن عنده. ثم غسل يديه، ودعا بالطعام، فجاءوا بمائدة عظيمة، لم أر مثلها للخليفة. فقال: تقدم يا منارة فشاركنا فى الأكل - فامتنعت عليه، فما عاودنى. وأكل هو ومن معه فوجدته أكل الملوك ووجدت جأشه رابطاً وذلك الاضطراب الذى فى داره قد سكن، ووجدتهم لا يرفعون من بين يديه شيئاً قد وضع على المائدة إلا نهباً.

وكان غلمانه قد أخذوا - لما نزلت الدار - جمالى وجميع غلمانى بالمنع من الدخول، فما أطاقوا مما نعتهم، وبقيت وحدى، ليس بين يدى إلا خمسة أو ستة غلمان، وقوف على رأسى. فقلت فى نفسى: هذا جبار عنيد، وإن امتنع على من الشخوص، لم أطق أشخاصه بنفسى، ولا بمن معى. ولا أطيق حفظه إلى أن يلحقنى أمير البلد. فجزعت جزعاً شديداً، ورابنى منه استخفافه بى فى الأكل. ولا يسألنى عما جئت به ويأكل مطمئنا، وأنا مفكر فى ذلك .

فلما فرغ من أكله وغسل يديه، دعا ببخور، فتبخر وقام إلى الصلاة، فصلى الظهر، وأكثر من الدعاء والابتهال. فرأيت صلاته حسنة.

فلما انفتل من المحراب أقبل على وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فقلت: أمر لك من أمير المؤمنين. وأخرجت الكتاب، ودفعته إليه فقراه. فلما أتم قراءته دعا أولاده وحاشيته. فاجتمع منهم خلق كثير. فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى. فلما تكاملوا ابتدأ، فحلف أيمانا غليظة، فيها الطلاق والعتاق والحج، وأمرهم أن ينصرفوا، ويدخلوا منازلهم، ولا يجتمع منهم اثنان فى مكان واحد ، ولا يظهروا إلى أن يظهر لهم ما يعملون عليه. وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرنى بالتوجه إليه. ولست أقيم بعد نظرى فيه لحظة واحدة. فاستوصوا بمن ورائى من الحريم خيراً. وما بى من حاجة أن يصحبنى غلام. هات أقيادك يا منارة.

فدعوت بها، وكانت فى سفط، وأحضرت حداداً فمد ساقيه، فقيدته، وأمرت غلمانى بحمله في المحمل. وركبت في الشق الآخر، وسرت من وقتى ولم ألق أمير البلد،ولا غيره. فسرت بالرجل ليس معه واحد، إلى أن صرنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدثنى بانبساط، حتى انتهيت إلى بستان حسن فى الغوطة. فقال لى: ترى هذا؟ قلت نعم. قال: إنه لى وأن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت. ثم انتهى إلى آخره فقال لى مثل ذلك. ثم انتهى إلى مزارع حسان، وقرى سنية. وقال: هذه لى، فاشتد غيظى منه. وقلت له: اعلم أني شديد التعجب منك! قال: ولم تعجب؟ قلت: ألست تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمه أمرك، حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك، وأخرجك عن جميع مالك، فريداً وحيداً مقيداً، إلى ما يصير إليه أمرك؟ ولم تدر كيف يكون، وأنت فارغ القلب من هذا، تصف ضياعك وبساتينك. هذا وقد جئت، وأنت ساكن القلب قليل الفكر لقد كنت عندى شيخاً فاضلا.

فقال لى مجيباً: إنا لله وإنا إليه راجعون. أخطأت فراستى فيك. ظننتك رجلاً كامل العقل، وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا بعد أن عرفوك بذلك. فأنا والله رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم والله المستعان.

أما قولك فى أمير المؤمنين وإخراجه إياى بابه، على صورتى هذه، فإنى على ثقة من الله عزوجل الذى بيده ناصيتى، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضراً، إلا بإذن الله ومشيئته، ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافه وبعد

فإذا عرف أمرى، وعلم سلامتى وصلاحى وبعد ناحيتى. وأن الحسدة والأعداء رمونى عنده بما ليس فى، وتقولوا على الأباطيل الكاذبة، لم يستحل دمى، وتحلل من أذاى وإزعاجى وردنى مكرماً، وأقامنى ببابه معظما. وإن كان سبق فى علم الله عز وجل، وأنه يبدر لى منه بادرة سوء، وقد حضر أجلى وكان سفك دمى على يده، فلو اجتمعت الإنس والجن والملائكة وأهل الأرض وأهل السماء على صرف ذلك عنى، ما استطاعوه. فلم أتعجل الغم وأتسلف الفكر فيما قد فرغ الله منه؟ وإنى حسن الظن بالله تعالى، الذى خلق ورزق، وأحيا وأمات، وأحسن وأجمل، وإن الصبر والرضا والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى. وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا. فإذ قد عرفت مبلغ فهمك، فإنى لا أكلمك بكلمة واحدة، حتى يفرق أمير المؤمنين بيننا، إن شاء الله تعالى.

قال منارة: ثم أعرض عنى، فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح، أو حاجة، أو ما يجرى مجراها، حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والنجب قد استقبلتنى على فراسخ من الكوفة يتجسسون خبرى. فحين رأونى، رجعوا عنى بالخبر إلى أمير المؤمنين. فانتهينا إلى الباب فى آخر النهار. فحططت، ودخلت على الرشيد فسلمت ووقفت. فقال: هات ما عندك يا منارة، وإياك أن تغفل منه شيئاً.

فسقت الحديث من أوله إلى آخره، حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور. وما حدثت به نفسى من امتناعه. والغضب يظهر فى وجه الرشيد ويتزايد، حتى انتهيت إلى فراغ الأموى من الصلاة والتفاته وسؤاله عن سبب قدومى ودفعى الكتاب إليه، ومبادرته إلى إحضار أولاده وأهله. وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد منهم، وصرفه إياهم ومد رجليه حتى قيدته.

فما زال وجه الرشيد يصفر حتى انتهيت إلى ما خاطبنى به عند توبيخى إياه لما ركبنا المحمل، قال: صدق، والله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة، مكذوب عليه، ولعمرى قد أزعجناه وآذيناه وروعنا أهله. فبادر بنزع قيوده وائتنى به. فخرجت، فنزعت قيوده، وأدخلته إلى الرشيد.

فما هو إلا أن رآه، قد رأيت الحياء يجول فى وجه الرشيد. فسأله عن حاله. ثم قال: بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك. ونحسن إليك. فاذكر حاجتك.

فأجاب الأموى جوابا جميلا. وشكر، ودعا. فقال: ما لى إلا حاجة واحدة. قال: مقضية ما هى؟ قال: يا أمير المؤمنين أن تردنى إلى بلدى وأهلى وولدى.

قال الرشيد: نفعل ذلك إن شاء الله تعالى. ولكن سل ما تحتاج إليه فى مصالح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شىء من هذا.

فقال: عمال أمير المؤمنين منصفون. وقد استغنيت بعدله عن سؤاله، فأمورى منتظمة، وأحوالى مستقيمة وكذلك أمور أهل بلدى، بالعدل الشامل فى ظل أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك. واكتب إلينا بأمر إن عرض لك. فودعه. فلما ولى خارجاً، قال الرشيد: يا منارة! احمله من وقتك، وسر به راجعاً إلى أهله، كما جئت به، حتى إذا أوصلته إلى محله الذى أخذته منه، فدعه فيه وانصرف. ففعلت[1].

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى (٢/ ٢٣).

قال جبلة بن الأسود:

خرجت فى طلب إبل لى ضلت. فمازلت فى طلبها إلى أن أظلم الظلام، وخفيت الطريق، فصرت أطوف وأطلب الجادة، فلا أجدها. فبينما أنا كذلك أسقط عن فرسى فقلت: لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسى. فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت واديا، فإذا راع قد ضم غنما له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها   أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسهـــا   إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدهـــا

فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام، وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به المسالك، أتاك يستجير بك ويستعينك. قال مرحبا وأهلا. انزل على الرحب والسعة. فعندى وطاء وطىء، وطعام غير بطىء. فنزلت، فنزع شملته وبسطها تحتى. ثم أتانى بتمر وزبد ولبن وخبز، ثم قال: اعذرنى فى هذا الوقت. فقلت: والله إن هذا الخبز كثير. فمال إلى فرسى فربطه وسقاه وعلفه.

فلما أكلت توضأت وصليت واتكأت. وإنى لبين النائم واليقظان، إذ سمعت مس شىء، وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى، ففضحت الشمس حسناً. فوثب قائماً إليها. وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها. وجعلا يتحادثان.

فقلت: هذا رجل عربى ولعلها حرمة له. فتناومت وما بى من نوم. فما زال فى أحسن حديث، ولذة مع شكوى وزفرات. إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقبيح. فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء. وبكى وبكت. ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطئ عنى، كما أبطأت الليلة. قالت: يا ابن العم أما علمت أنى انتظر الواشين والرقباء حتى يناموا؟

ثم ودعته وسارت. وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكى فبكيت رحمة لهما. وقلت فى نفسى: والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة، وأنظر مايكون من أمرهما.

فلما أصبحنا قلت له: جعلنى الله فداءك، الأعمال بخواتمها، وقد نالنى أمس تعب شديد. فأحب الراحة عندك اليوم فقال: على الرحب والسعة. لو أقمت عندى بقية عمرك ما وجدتنى إلا كما تحب، ثم عمد إلى شاة، فذبحها، وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلى، فأكلت وأكل معى إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل.

فلم أزل معه نهارى ذلك. ولم أر أشفق منه على غنمه، ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً. إلا أنه كالولهان، ولم أعلمه بشىء مما رأيت. فلما أقبل الليل وطأت وطائى، فصليت، وأعلمته أنى أريد الهجوع، لما مر بى من التعب بالأمس. فقال: نم هنيئا فأظهرت النوم، ولم أنم. فقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل. فأبطأت عليه. فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً، وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوى، فحركنى فأوهمته أنى كنت نائماً. فقال: يا أخى هل رأيت الجارية التى كانت تتعهدنى وجاءتنى البارحة! قلت: قد رأيتها. قال: فتلك ابنة عمى وأعز الناس على، وإنى لها محب، ولها عاشق، وهى أيضاً محبة لى أكثر من محبتى لها، وقد منعها أبوها من تزويجها إلى، لفقرى وفاقتى، وتكبر على. فصرت راعياً بسببها، فكانت تزورنى فى كل ليلة. وقد حان وقتها الذى تأتى فيه، واشتغل قلبى عليها، وتحدثنى نفسى أن الأسد قد افترسها. ثم أنشد يقول:

ما بال مية لا تأتى كعـــادتهـــا   أعاقها طرب أم صدها شغـل

نفسى فداؤك قد أحللت بى سقا   تكاد من حره الأغصان تنفصل

ثم انطلق، فغاب عنى ساعة وأتى بشىء، فطرحه بين يدى، فإذا هى الجارية، قد قتلها الأسد، وأكل أعضاءها وشوه خلقتها. ثم أخذ السيف وانطلق، فأبطأ هنيهة، وأتى ومعه رأس الأسد، فطرحه، ثم أنشأ يقول:

ألا أيها الليث المدل بنفســـه   هلكت لقد جربت حقاً لك الشرا

وخلفتنى فرداً وقد كنت آنساً   وقد عادت الأيام من بعدها غبـرا

ثم قال: بالله يا أخى إلا ما قبلت ما أقول لك، فإنى أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة، فإذا أنا مت فخذ عباءتى هذه، فكفنى فيها، وضم هذا الجسد

الذى بقى منها معى وادفنا فى قبر واحد، وخذ شويهاتى هذه وجعل يشير إليها. فسوف تأتيك امرأة عجوز، هى والدتى، فأعطها عصاى هذه وثيابى وشويهاتى وقل لها: مات ولدك كمداً بالحب. فإنها تموت عند ذلك، فادفنها إلى جانب قبرنا. وعلى الدنيا منى السلام.

فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ووضع يده على صدره ومات لساعته. فقلت والله لأصنعن له ما أوصانى به. فغسلته وكفنته فى عباءته وصليت عليه، ودفنته ودفنت باقى جسده إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزيناً.

فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز، وهى كالولهانة فقالت لى: هل أريت شابا يرعى غنما؟ فقلت لها: نعم. وجعلت أتلطف بها. ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره، فأخذت تصيح وتبكى، وأنا ألاطفها، إلى أن مضى من الليل برهة، فقصدت نحوها، فإذا هى مكبة على وجهها، وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك، فحركتها، فإذا هى ميتة، فغسلتها وصليت عليها، ودفنتها إلى جانب قبر ولدها.

وبت الليلة الرابعة. فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى وجمعت الغنم وسقتها، فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهر يجمعنا ... والشمل مجتمع والدار والوطن

فمزق الدهر بالتفريـق الفتنـــا ... وصار يجمعنا فى بطنها الكفـن

فأخذت الغنم ومضيت إلى الحى لبنى عمهم، فأعطيتهم الغنم وذكرت لهم القصة، فبكى عليهم أهل الحى بكاء شديداً ثم مضيت إلى أهلى وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى[1].

(١) المستطرف: (٢/٢٢٩ـ ٢٣١).

عمر يفتح بيت المقدس

لما فتح المسلمون الشام أقاموا على دمشق شهراً. فجمع أبو عبيدة بن الجراح أمراء المسلمين، واستشارهم فى المسير إلى قيسارية، أو إلى بيت المقدس. فقال له معاذ ابن جبل: أيها الأمير، اكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك امتثله. قال له: أصبت الرأى يا معاذ. ثم كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه بذلك. وأرسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعى. فسار حتى دخل المدينة، فسلم الكتاب إلى عمر، فقرأه على المسلمين واستشارهم. فقال على: يا أمير المؤمنين مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعد إن شاء الله تعالى.

ثم دعا عمر بدواة وبياض وكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من عبد الله بن عمر إلى عامله بالشام أبى عبيدة

أما بعد: فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه، وقد وصلنى كتابك تستشيرنى إلى أى ناحية تتوجه. وقد أشار ابن عم رسول الله بالمسير إلى بيت المقدس، فإن الله يفتحها على يديك، والسلام.

فلما وصل الكتاب إلى أبى عبيدة بن الجراح قرأه على المسلمين، ففرحوا بالمسير إلى بيت المقدس. وتقدمه الجيش إلى بيت المقدس. وأقام المسلمون فى القتال عشرة أيام، وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح، لعدم الخوف. فلما كان فى اليوم الحادى عشر أشرفت عليهم راية أبى عبيدة، وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبى بكر عن يساره. فضج الناس ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير. فوقع الرعب فى أهل بيت المقدس. فاجتمعوا بقمامة، وهى البيعة المعظمة عندهم. فلما وقفوا بين يدى البطرك قال لهم: ما هذه الضجة التى أسمع؟ قالوا: يا أبانا، إنه قد قدم أمير القوم ببقية المسلمين، فلما سمع البطرك منهم ذلك انخطف لونه، وتغير وجهه. وقال: أنا وجدنا فى علمنا الذى ورثناه أن الذى يفتح الأرض هو الرجل

الأحمر صاحب نبيهم محمد. فإن كان قدم عليكم فلا سبيل إلى قتله. ولابد أن أشرف عليه وأنظر إلى صفته. فإن كان هو أجبته إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا بأس عليكم.

ثم وثب قائماً، والقساوسة والرهبان والسماسرة حوله، وقد رفعوا الصلبان على رأسه، فصعدوا إلى السور، إلى أن ورد أبو عبيدة. فناداهم رجل من الروم بإذن البطرك: يا معشر المسملين! كفوا عن القتال حتى نسألكم. فأمسك المسلمون عنهم، فناداهم الرجل بلسان عربى: اعلموا أن الرجل الذى يفتح بلدتنا هذه وجميع الأرض صفته عندنا. فإن كانت فى أميركم لم نقاتلكم، بل تسلم إليكم. وإن لم تكن هذه صفته فلا تسلم إليكم أبداً.

فأعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك، فخرج أبو عبيدة إليهم، إلى أن حاذاهم. فنظر البطرك وحقق صورته. فقال ليس هو الرجل، فأبشروا وقاتلوا عن دينكم وحريمكم.

وكان نزول المسلمين على بيت المقدس فى فصل الشتاء والبرد. فأقاموا عليها أربعة أشهر فى أشد قتال، مع الصبر على المطر والثلج، فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار فى ذلك الفصل الصعب، وما نزل بهم من المسلمين، وقفوا بين يدى البطرك، وقالوا له قد عظم الأمر، ونريد منك أن تشرف على القوم، وتسأل ما الذى يريدون؛ فإن كان أمراً صعبا فتحنا الأبواب وخرجنا إليهم، فإما أن نقتل عن آخرنا وإما أن نهزمهم عنا.

فأجابهم البطرك الى ذلك وصعد السور واجتمع القسيسون والرهبان حوله. ونادى منهم رجل بالعربى. يا معشر الفرسان، قد أقبل عمدة دين النصرانية يخاطبكم، فليدن منا أميركم، فقام أبو عبيدة يمشى ومعه جماعة من أصحاب رسول الله وترجمان فلما وقف بإزائهم قال: ما الذى تريدون؟ هذا أمير العرب، فقال البطرك. إنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تصلوا إلى فتح بلدتنا أبداً، وإنما يفتحه رجل موصوف، وليست الصفة معكم. قال أبو عبيدة. وما صفة من يفتح بلدكم؟ قال البطرك لا نخبركم بصفته. ولكن قرأنا أن هذا البلد يفتحه صاحب لمحمد اسمه عمر بن الخطاب، ويعرف بالفاروق، وهو رجل شديد، لا

تأخذه فى الله لومة لائم. ولسنا نرى صفته فيكم.

فلما سمع أبو عبيدة كلام البطرك تبسم وقال: فتحنا البلد ورب الكعبة. ثم أقبل على البطرك وقال: إن رأيت الرجل تعرفه؟ قال نعم، وكيف لا أعرفه وصفته عندنا؟ قال أبو عبيدة. هو والله خليفتنا وصاحب نبينا. قال البطرك. فإن كان الأمر على ما ذكرتم، فاحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأتى. فإذا رأيناه وتبينا نعته، فتحنا له البلد وأعطيناه الجزية.

فانصرف أبو عبيدة، وأمر الناس بالكف عن القتال، وأعلمهم بالخبر. فكبروا وكتب أبو عبيدة إلى الإمام عمر يعلمه بالخبر على يد ميسرة بن مسروق. فلما وصل الكتاب إلى يد عمر فرح وقرأه على المسلمين وقال: ما ترون رحمكم الله فيما كتب إلينا أمين هذه الأمة؟ فكان أول من تكلم عثمان فقال، يا أمير المؤمنين. إن الله قد أذل الروم فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف، فلا يلبثون إلا يسيراً. فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيراً. وقال: هل عند أحد منكم رأى غير هذا؟ فقال على: نعم عندى غير هذا الرأى. وأنا أبديه إليك رحمك الله. فقال عمر: وما هو يا أبا الحسن؟ قال: إن الروم قد سألوك.. وفى سؤالهم ذل، وهو على المسلمين فتح، وقد أصابهم جهد عظيم؛ البرد والقتال وطول المقام.. وإن سرت إليهم فتح الله على يديك هذه المدينة.. وكان لك فى سيرك الأجر العظيم.. ولست آمناً منهم أنهم إذا أيسوا منك أن يأتيهم المدد من طاغيتهم، فيحصل للمسلمين بذلك الضر.. والصواب أن تسير إليهم.

ففرح عمر بمشورة على.. وقال: لقد أحسن عثمان النظر فى المكيدة للعدو. وعلى أحسن النظر للمسلمين جزاهما الله خيراً، وآخذ بمشورة على. فما عرفناه إلا محمود المشورة، ميمون الطلعة.

وأمر عمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه. واستخلف على المدينة على بن أبى طالب. وخرج من المدينة وهو على بعير له أحمر، غرارتان فى أحدهما سويق وفى الأخرى تمر. وبين يديه قربة وخلفه جفنة للزاد وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس، فالتقاه أبو عبيدة، فلما رآه أناخ قلوصه، وأناخ عمر بعيره وترجلا، ومد أبو عبيدة يده وصافح عمر، وتعانقا وسلم كل منهما على صاحبه وأقبل

المسلمون يسلمون على عمر. ثم ركبوا جميعاً إلى أن نزلوا. فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر. ثم خطبهم.

فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يحدثه بما لقى من الروم. إلى أن حضرت صلاة الظهر أذن بلال فى ذلك اليوم. فلما قال الله أكبر، خشعت جوارحهم واقشعرت أبدانهم، فلما قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، بكى الناس بكاء شديد، عند ذكر الله ورسوله. وكاد بلال أن يقطع الأذان، فلما فرغ من الأذان صلى عمر وجلس. ثم أمرهم بالركوب. فلما هم بالركوب على بعيره، وعليه مرقعة الصوف وفيها أربع عشر رقعة، بعضها من أدم. قال المسلمون. يا أمير المؤمنين، لو ركبت غير بعيرك جواداً، ولبست ثيابا، لكان ذلك أعظم لهيبتك فى قلوب أعدائك. وأقبلوا يسألونه ويطوفون به، إلى أن أجابهم إلى ذلك. ونزع مرقعته ولبس ثياباً بيضاً. قال الزبير أحسبها كانت من ثياب مصر تساوى خمسة عشر درهماً، وطرح على كتفه منديلا من الكتان، دفعه إليه أبو عبيدة. وقدم له برذوناً أشهب من براذن الروم. فلما صار عمر فوقه جعل البرذون يهملج[1]. فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعاً وقال. أقيلونى عثرتى أقالكم الله عثراتكم يوم القيامة، لقد كاد أميركم يهلك مما داخله من الكبر. ثم إنه نزع البياض، وعاد إلى لبس مرقعته وركوب بعيرة، فعلت ضجة المسلمين بالتهليل والتكبير.

قال البطرك للروم. انظروا ما شأن العرب فأشرف رجل من المتنصرة فقال. يا معاشر العرب، ما قضيتكم؟ فقالوا إن عمر بن الخطاب قد قدم علينا من مدينة نبينا، فرجع المتنصر وأعلم البطرك فأطرق ولم يتكلم.

فلما كان الغد صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر. ثم قال لأبى عبيدة. تقدم إلى القوم وأعلمهم أنى قد أتيت، فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال أن أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، قد أتى فما تصنعون فيما قلتم؟ فأعلم البطرك بذلك. فخرج من قمامة، وعليه المسوح، ومن حوله الرهبان والقسس. ثم علا السور، وأشرف على أبى عبيدة. وقال ما هذا أيها الشيخ؟ قال أبو عبيدة هذا أمير

(١) مهملج : مذلل منقاد كما فى القاموس .

المؤمنين، عمر بن الخطاب. فقال البطرك قل له أن يدنو منى، فإنا نعرفه بصفاته ونعته. وأفردوه من بينكم حتى نراه.

فرجع أبو عبيدة إلى عمر، فأخبره بما قال البطرك. فهم عمر بالقيام. فقال له أصحاب الرسول يخشى عليك من الانفراد بلا عدة. فقال عمر **﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾**[1].

ثم لبس مرقعته وركب بعيره، وأبو عبيدة سائر بين يديه، إلى أن أتى بإزاء البطرك قريباً من الحصن. فقال أبو عبيدة. هذا أمير المؤمنين فمد البطرك عنقه، ونظر إليه، فزعق زعقته، وقال هذا والله الذى صفته ونعته فى كتابنا. ثم قال يا أهل بيت المقدس، انزلوا إليه، وخذوا منه الأمان والذمة، فهذا والله صاحب محمد بن عبد الله.

فنزلوا مسرعين وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار. وفتحوا الباب. وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد. فلما رآهم عمر فى تلك الحال تواضع لله سبحانه وتعالى، وخر ساجداً على قتب بعيره. ثم أقبل عليهم وقال: ارجعوا إلى بلدكم، ولكم العهد، فرجع القوم إلى البلد ولم يغلقوا الباب. ورجع عمره.

فلما كان من الغد وهو يوم الإثنين دخل إليها وأقام بها إلى يوم الجمعة، وخط محراباً، وهو موضع مسجده، وتقدم وصلى بالمسلمين صلاة الجمعة، وأقام فى بيت المقدس عشرة أيام. وبها أسلم كعب الأحبار على يده. وارتحل معه لزيارة قبر النبى وذلك بعد أن كتب الإمام عمر لأهل بيت المقدس، وأقرهم فى بلدهم على عهده وأداء الجزية.

---

(١) التوبة: ٥١.

أرينب بنت إسحاق... ومعاوية

يروى أن يزيد بن معاوية سهر ليلة من الليالى، وعنده وصيف لمعاوية يقال له «رقيق». فقال يزيد: ليستديم الله بقاء أمير المؤمنين وعافيته، فقد أعرف من جميل رأيه فى جميع الأشياء، ما منعنى من البوح بما جمعت فى صدرى له، فأضاع وترك من النظر فى شأنى، وكان فى حلمه وعلمه ورضائه ومعرفته بما يحق لمثله النظر فيه، غير غافل عنه، ولا تارك له، مع ما يعلم من هيبتى له وخشيتى منه، فالله يجزيه عنى بإحسانه ويغفر له، ما اجترح من عهده ونسيانه.

فقال رقيق: وما ذلك جعلت فداك؟ لا تلم على تضييعه إياك، فإنك تعرف تفضيله وحرصه عليك، وإن لبس شىء أحب إليه ولا آثر عنده منك لديه. فاذكر بلاءه، واشكر حباءه، فإنك لا تبلغ من شكره إلا بعون من الله.

فأطرق يزيد إطراقاً عرف رقيق منه ندامته على ما بدا منه ندامته على ما بدا منه وباح به.

فلما آب من عنده توجه نحو سيده معاوية ليلا - فعلم معاوية أنه ما جاء به ليلا إلا خبر أراد إعلامه به. فقال له معاوية ما وراءك وما جاء بك؟ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، كتب عند ابنك يزيد، فقال فيما استجر من الكلام كذا وكذا.. فوثب معاوية وقال. ويحك! ما أضعنا منه رحمة له - وكان معاوية لا يعدل بما يرضيه شيئاً، فقال: على به. وكان معاوية إذا أتته الأمور المشكلة المعضلة بعث الرسول قال أجب أمير المؤمنين فحسب يزيد إنما دعاه إلى تلك الأمور التى يفزع إليه منها، ويستعين برأيه عليها. فأقبل حتى دخل.. ثم جلس فقال معاوية: يا يزيد، ما الذى أضعنا من أمرك وتركنا من الحيطة عليك وحسن النظر لك، حتى قلت ما قلت. وقد عرفت رحمتى بك ونظرى فى الأشياء التى تصلحك، قبل أن تخطر على وهمك، فكنت أظنك على تلك النعماء شاكراً، فأصبحت بها كافراً، إذ فرط من قولك ما ألزمتنى فيه إضاعتى إياك، وأوجبت على منه بالتقصير، لم يزجرك عن ذلك تخوف سخطى، ولم يحجزك دون ذكره سالف نعمتى، ولم يردعك عنه حق أبوتى، فأين ولد أعق منك! وقد علمت أنى تخطأت الناس كلهم

فى تقديمك، ونصبتك إماماً على أصحاب رسول الله وفيهم من عرفت!

فتكلم يزيد، وقد خنقه من شدة الحياء الشرق، وأخضله من أليم الوجد العرق، فقال: لا تلزمنى كفر نعمتك، ولا تنزل بى عقابك، وقد عرفت نعمة مواصلتك بيرك وخطوتى إلى ما يسرك، فى سرى وجهرى، فليسكن سخطك، كان الذى أرثى له من أعباء حمله وثقله أكثر مما أرثى لنفسى من أليم ما بها، وسوف أنبئك أمرى. . كنت قد عرفت من أمير المؤمنين نظراً فى خيار الأمور لى حرصاً على سياقها إلى. وأفضل ما عسيت أستعده، بعد إسلامى، المرأة الصالحة. وقد كان ما تحدث به من فضل جمال أرينب بنت إسحاق وكمال أدبها، ما قد سطع وشاع فى الناس، فوقع منى موقع الهوى، فرجوت أن لا تدع حسن النظر فى أمرها، فتركت ذلك، حتى تزوجت فلم يزل ما وقع فى خلدى ينمو ويعظم فى صدرى حتى عيل صبرى، فبحت بسرى، فكان مما ذكرت تقصيرك فى أمرى.

قال معاوية: مهلا يا يزيد، فقال: علام تأمرنى بالمهل، وقد انقطع منها الأمل! فقال له معاوية. فأين حجاك ومروءتك وتقاك؟ فقال يزيد: قد يغلب الهوى على الصبر والحجا. ولو كان أحد ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتقاه، أو يدفع ما أقصده بحجاه، لكان أول الناس بالصبر داود عليه السلام وقد خبرك به القرآن. قال معاوية: فما منعك قبل الفوت من ذكره؟ قال: ما كنت أعرفه واثق به من جميل نظرك. قال :صدقت. . .

ولكن اكتم يا بنى أمرك بحلمك. واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك، فإن البوح به غير نافعك، والله بالغ أمره، ولا بد مما هو كائن.

وكانت أرينب بنت إسحاق مثلا فى أهل زمانها، فى جمالها وتمام كمالها وشرفها وكثرة مالها، فتزوجها رجل من بنى عمها، يقال له «عبد الله بن سلام» من قريش وكان من معاوية بالمنزلة الرفيعة فى الفضل.

ووقع أمر يزيد من معاوية موقعاً ملأه هماً وأوسعه غماً، فأخذ فى الحيلة والنظر، كيف يصل إليها وكيف يجمع بينه وبينها حتى يبلغ رضا يزيد فيها.

فكتب معاوية إلى عبد الله بن سلام ـ وكان قد استعمله على العراق ـ إن أقبل حين تنظر كتابى هذا، لأمر حظك فيه كامل، ولا تتأخر عنه، فاغذ المسير والإقبال.

وكان عند معاوية بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء، صاحبا رسول الله ﷺ. فلما قدم عبد الله بن سلام الشام أمر معاوية أن ينزل منزلاً، قد هيئ له. ثم قال لأبى هريرة وصاحبه. قد بلغت لى ابنة وأريد تزويجها، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام، لدينه وفضله ومروءته وأدبه، فقالا. إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيها أنت يا صاحب رسول الله وكاتبه فقال معاوية: اذكر له منى. وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى، غير أنى أرجو أن لا تخرج من رأيى إن شاء الله.

فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذى قال لها، دخل معاوية إلى ابنته، فقال لها إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الدرداء، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وتزويجى إياك منه، فقولى لهما: عبد الله بن سلام كفء كريم، وقريب حميم، غير أن تحته أرينب بنت إسحاق، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء فلا أقبل به حتى يفارقها.

فذكر أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام وأعلماه بالذى أمرهما معاوية. فلما أخبراه سر به وفرح وحمد الله عليه. ثم قال: نستمتع الله بأمير المؤمنين، لقد والى علىّ من نعمه وأسدى إلىّ من منته، فأطول ما أقول فيه قصير، وأعظم الوصف له يسير. ثم أراد إخلاطى بنفسه وإلحاقى بأهله، إتماماً لنعمته وإكمالاً لإحسانه. فالله أستعين على شكره، وبه أعوذ من مكره وكيده.

ثم بعثهما إليه خاطبين عليه، فلما قدما قال لهما معاوية: قد تعلمان رضائى به، واختيارى إياه وحرصى عليه. وقد كنت أعلمتكما بالذى جعلت لها فى نفسها من الشورى، فادخلا إليها وأعرضا عليها الذى رأيت لها. فدخلا عليها وأعلماها بالذى ارتضاه لها أبوها، لما رجاه من ثواب الله عليه .

فقالت لهما كالذى قال لها أبوها. فأعلما عبد الله بذلك. فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا أمرها فارق زوجته وأشهدها على طلاقها، وبعثهما خاطبين إليه

أيضاً. فخطبا وأعلما معاوية بالذى كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته، طالبا لما يرضى ابنته، فأظهر معاوية كراهية لفعله وقال: ما استحسن له طلاق امرأته ولا أحببته. ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره. فإن كون ما هو كائن لا بد منه، ولا محيص عنه، وما سبق فى علم الله لا بد جار. فانصرفا فى عافية، ثم تعودان إلينا فيه، وتأخذان إن شاء الله رضانا فيه.

ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرينب. فلما عاد أبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول عليها وسؤالها عن رضاها، وقال لهما: لم يكن لى أن أكرهها، وقد جعلت لها الشورى فى نفسها. فدخلا عليها وأعلماها بطلاقه أرينب طلباً لرضاها، وذكرا لها من فضله وكمال مروءته وكريم محتده ما القول يقصر عن ذكره. فقالت لهما: جف القلم بما هو كائن، وأنه فى قريش لرفيع... وقد تعرفان أن التزويج هزله جد، وجده ندم والأناة فى الأمور أوفق لما يخاف فيها من المحذور. فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأنى فيها كان المرء بحسن العزاء خليفاً وبالصبر عليها حقيقاً... وإنى سائله عنه أعرف دخيلة خبره... فقلا: وفقك الله، وخار لك.

ثم انصرفا عنها إلى ابن سلام ولما أعلماه بما قالت قال:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى   فإن غــــداً لناظــــــره قريب

وتحدث الناس بالذى كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يفرغ من طلبته. ولم يشكوا فى غدر معاوية له. فاستحث عبد الله بن سلام أبا هريرة وأبا الدرداء، وسألهما الفراغ من أمره. فأتيا ابنة معاوية وقالا لها. قد أتيناك لما أنت صانعة فى أمرك، وإن تستخيرى الله يخر لك، قالت: قد استبرأت أمره وسألت عنه، فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى، مع اختلاف من استشرته فيه، فمنهم الناهى عنه، ومنهم الآمر به. واختلافهم أول ما كرهت من الله.

فعلم عبد الله أنه خدع، فهلع ساعة واشتد عليه الهم. ثم انتبه، فحمد الله وأثنى عليه وعزى نفسه بقضاء الله وقدره. وذاع أمره فى الناس وشاع ونقلوه إلى الأمصار وتحدثوا به فى الأسمار. وشاع فى ذلك قولهم وعظم لمعاوية عليه لومهم، وقالوا خدعه حتى طلق امراته. وإنما أرادها لابنه، فبئس ما استرعاه الله

أمر عباده ومكنه فى بلاده وأشركه فى سلطانه، يطلب أمراً بخدعة من جعل الله أمره. . . جرأة على الله.

فلما بلغ معاوية ذلك من قول الناس قال: لعمرى ما خدعته. فلما إنقضت أقراؤها وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لأرينب على ابنه يزيد. فخرج حتى قدمها - وبها يومئذ الحسين بن على، وهو سيد أهل العراق فقهاً وحالاً وجوداً وبذلاً. فقال أبو الدرداء لما قدم العراق: ما ينبغى بى ألا أن أبدأ بزيارة ابن بنت الرسول ﷺ، والدخول عليه وأداء حقه والتسليم عليه، ثم أقصد إلى ما جئت إليه. فقصد حتى أتى الحسين. فلما رآه الحسين قام إليه فصافحه إجلالاً له ومعرفة لمكانته من رسول الله.

ثم قال الحسين: مرحباً بصاحب رسول الله وجليسه يا أبا الدرداء، أحدثت لى رؤيتك شوقاً إلى الله وأعادت أحزانى عليه، فإنى لم أر منذ فارقته أحداً كان له جليساً وإليه حبيباً إلا هملت عيناى وأحرقت كبدى. ففاضت عينا أبى الدرداء لذكر رسول الله وقال: جزى الله لبانة أقدمتنا عليك وجمعتنا بك. . . وجهنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب بنت إسحاق، فرأيت ان لا أبدأ بشىء قبل إحداث العهد بك والتسليم عليك. فشكر له الحسين ذلك وأثنى عليه، وقال: لقد كنت ذكرت زواجها، وأردت الإرسال إليها، بعد انقضاء أقرائها. فلم يمنعنى من ذلك إلا اختيار مثلك، فقد أتى الله بك، فاخطب - رحمك الله - على وعليه، فلتختر من اختاره الله لها. وأنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها. وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه. فقال أبو الدرداء: أفعل إن شاء الله.

فلما دخل عليها قال لها: أيتها المرأة، إن الله خلق الأمور بقدره وكونها بعزته، فجعل لكل أمر قدراً، ولكل قدر سبباً، فكان مما سبق لك وقدر عليك الذى كان من فراق عبد الله بن سلام إياك. . ولعل ذلك لا يضرك، وأن يجعل الله لك فيه خيراً كثيراً. وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن الملك وولى عهده والخليفة من بعده - يزيد بن معاوية،وابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنة - الحسين بن على. وقد بلغك سناهما وفضلهما وجئتك خاطباً عليهما. فاختارى أيهما شئت.

فسكتت طويلاً ثم قالت: يا أبا الدرداء، لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عنى أشخصت فيه الرسل إليك، واتبعت فيه رأيك، ولم أقطعه دونك، فقد فوضت أمرى بعد الله إليك وجعلته فى يديك، فاختر لى أرضاهما لديك، واقض فيه قضاء ذي التحرى المتقى، ولا يصدنك عن ذلك اتباع هوى، فليس أمرهما عليك خفياً. وما أنت عما طوقتك عميا.

قال أبو الدرداء: أيتها المرأة إنما على إعلامك، وعليك الاختيار لنفسك.

قالت: عفا الله عنك إنما أنا بنت أخيك ومن لا غنى بها عنك. فقال: أي بنية: ابن بنت رسول الله أحب إلى وأرضاهما عندى، والله أعلم بخيرهما لك. وقد كنت رأيت رسول الله واضعاً شفتيه على شفتى الحسين، فضعي شفتك حيث وضعها رسول الله.

قالت: قد اخترته ورضيته ـ فتزوجها الحسين وساق إليها مهراً عظيماً.

وبلغ معاوية الذى كان من فعل أبى الدرداء فعظم عليه ذلك جداً ولامه يزيد لوماً شديداً وقال: من يرسل ذا بلاهة وغفلة يركب فى أمره خلاف ما يهوى. ورأينا كان من رأيه أسوأ. ولقد كنا بالملامة منه أولي حين بعثناه، ولحاجتنا انتحلناه.

وكان عبد الله بن سلام قد استودع أرينب قبل فراقه إياها بدرات مملوءة دراً، وكان ذلك الدر أعظم ما له واحب إليه. وكان معاوية قد أطرحه وقطع جميع روافده عنه، لسوء قوله فيه، وتهمته إياه على الخديعة. فلم يزل يغضبه ويجفوه حتى عيل صبره وطال أمره وقل ما فى يديه، ولام نفسه على المقام لديه. فخرج من عنده راجعاً إلى العراق، وهو يذكر ماله الذى كان استودعها. ولا يدرى كيف يصنع، وكيف يصل إليه وهو يتوقع جحودها عليه، لسوء فعله بها وطلاقه إياها على غير شيء أنكره منها ولا نقمة عليها.

فلما قدم العراق، لقى الحسين فسلم عليه. ثم قال: قد علمت الذى كان من قضاء فى طلاق. أرينب وكنت قبل فراقى إياها قد أستودعها مالا عظيماً دراً، وكان الذى كان، ولم أقبضه. والله ما أنكرت منها فى طول ما صحبتها فتيلا، ولا أظن بها إلا جميلاً. فذاكرها أمري، وأحضضها على الرد على، فإن الله يحسن

عليك ذكرك ويجزل به أجرك. فسكت عنه.

فلما انصرف الحسين إلى أهله، قال لها: قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك ويجمل النشر عنك فى حسن صحبتك، وما آنسه قديماً من أمانتك. فسرني ذلك وأعجبنى، وذكر أنه كان استودعك مالا، قبل فراقه إياك، فأدى أمانته وردى عليه ماله؛ فإنه لم يقل إلا صدقاً. ولم يطلب إلا حقاً. قالت صدق والله، استودعنى لا أدرى ما هو، وأنه المطبوع عليه بطابعه، ما أخذت منه شيئاً إلى يومه هذا. وها هو فادفعه إليه. فأثنى عليها الحسين خيراً وقال: بل أدخله عليك حتى تبرئى إليه منه كما دفعه إليك.

ثم لقى عبد الله بن سلام، فقال له: ما أنكرت مالك. وزعمت أنه لكما دفعته إليها بطابعك، فادخل عليها وتوف ما لك منها. فقال عبد الله: أو تأمر بدفعه إلى! قال: لا. حتى تقبضه منها كما دفعته إليها وتبرئها منه إذا أدته.

فلما دخلا عليها، قال لها الحسين: هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته، فأديها إليه، كما قبضتيها منه. فأخرجت البدرات، فوضعتها بين يديه. وقالت له: هذا مالك. فشكر لها وأثنى عليها. وخرج الحسين، ففض عبد الله خاتم بدره، فحثا لها من ذلك الدر حثوات، وقال: خذى، فهذا قليل منى لك. واستعبرا جميعاً، حتى تعالت أصواتهما بالبكاء، أسفا على ما ابتليا به.

فدخل الحسين عليهما، وقد رق لهما،للذى سمع منهما، فقال. أشهد الله أنها طالق ثلاثاً. اللهم إنك تعلم أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها ولكنى أردت إحلالها لبعلها... ولم يأخذ مما ساق إليها في مهرها قليلاً ولا كثيراً. وسأل عبد الله أرينبا: أي التعويض علىّ الحسين؟ فأجابته إلى رد ماله عليه، شكراً لما صنعه بهما. فلم يقبله، وقال: الذى أرجو عليه من الثواب خير لى منه. فتزوجها عبد الله بن سلام وعاشا متاحبين متصادقين، حتى قبضهما الله، وحرمها على يزيد[1]

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (١/ ١٨٤- ١٩٤)

أذن معاوية للناس، فكان فيمن دخل عليه فتى من بنى عذرة. فلما أخذ الناس مجالسهم قام الفتى العذرى وأنشأ يقول :

معاوية ياذا الفضل والحلم والعقل ... وذا البر والإحسان والجود والبذل
أتيتك لما ضاق فى الأرض مسكنى ... وأنكرت مما قد أصبت به عقلى
ففرج - كلاك الله - عنى فإننى ... لقيت الذى لم يلقه أحد قبلى
وخذلى - هداك الله - حقى من الذى ... رمانى بسهم كان أهونه قتلى
وكنت أرجى عدله إن أتيته ... فأكثر تردادى مع الحبس والكبل
سبانى «سعدى» وانبرى لخصومتى ... وجار ولم يعدل وغاضبنى أهلى
فطلقتها من جهد ما قد أصابنى ... فهذا أمير المؤمنين من العدل

فأومأ معاوية إليه وقال: ادن . . بارك الله عليك . . ما خطبك؟

فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين إننى رجل من بنى عذرة، تزوجت ابنة عم لى، وكان لى مال من الإبل والأنعام أنفقته كله عليها، فلما قل ما بيدى وأصابنى نائبات الزمان وحادثات الدهر، قلب لى أبوها ظهر المجن، ورغب عنى . وكانت زوجتى، على ما بها من المحبة لى - جارية منها الحياء والكرم والطاعة لوالديها، فكرهت مخالفة أبيها، وفاقتنى على مضض منها، فلم أجد لى مخلصاً من هذه المحنة سوى الالتجاء للأمير«ابن الحكم» مستصرخاً به وراجياً لنصرته فذكرت له قصتى فأحضر أباها وسأله عن قصتى، وكان قد بلغه جمالها. فسولت له نفسه الزواج بها بدلا من أن ينصفنى. فدفع لأبيها عشرة آلاف درهم . وقال له: هذه لك وزوجنى بها. وأنا أضمن خلاصها من هذا الأعرابى.

فرغب أبوها فى البذل ورضى بهذا الزواج. وبهذا أصبح الأمير لى خصماً وعلى منكراً. فكنت كالمستجير بالرمضاء من النار، فانتهرنى، وأمر بى إلى السجن، وأرسل إلى أن أطلقها. فلم أفعل وترددت رسله إلى فى ذلك. فخاب سعيهم. فضيق على فى حبسى وعذبنى بأنواع العذاب. فلما أصابنى مس الحديد وألم العذاب، ولم أجد بدا من ذلك طلقتها . . . طلقتها مكرهاً وبودى أن أفارق الحياة.

فما استكملت عدتها حتى تزوج بها يا أمير المؤمنين. فلما دخل بها أرسل إلى، فأطلقني فخرجت من السجن إليك. وها أنا قد أتيتك مستجيراً بك. وأنت غياث المكروب وسند المسلوب فهل من فرج؟

هل من رحمة يا أمير المؤمنين... ثم بكى بكاءاً مراً وقال فى بكائه: ـ

فى القلب منى نـار	والنار فيها استعار
والعين تبكى بشجو	فدمعها مـــدرار
والحب داء عســير	فيه الطبيب يــحار
حملت منه عظيما	فما عليه اصطـبار
فليس ليلى ليـــل	ولا نهارى نهـــار

فرق له معاوية وكبر عليه الأمر وضج الناس بالشكوى من هول ما سمعوه من الأعرابى، مما لم يألفوه الحالة. وكلموا معاوية فى أمره، وهو يكاد يتميز من الغيظ.

فكتب معاوية إلى ابن الحكم كتاباً شديداً، وأمره فيه أن يطلق سعاد، وأن يرسلها مع الوفد المرسل إليه حال وصوله. وأرسل له فى كتابه هذه الأبيات: ـ

ركبت أمراً عظيماً لست أعرفه	أستغفر الله من جور امرئ زانى
قد كنت تشبه صوفياً له كتـب	من الفرائض أو آيات فرقـــان
حتى أتانا الفتى العذرى منتخباً	يشكو إلى بحق غير بهـــتان
إن أنت راجعتنى فيما كتبت به	لأجعلنك لحماً بين عقـــبان

ثم انتدب الكميت ونصر بن ذيبان. ودفع إليهما كتابه وقال: اذهبا به إليه، وأوصاهما بالشدة والإسراع فى تفريج كربة الرجل.

فلما ورد كتاب معاوية على ابن الحكم، ما كاد يقرأه حتى تنفس الصعداء وأسقط فى يده وقال: وددت أن أمير المؤمنين خلى بينى وبينها سنة، ثم عرضنى على السيف.

وجعل يؤامر نفسه فى طلاقها، فلا يقدر فأخذ يراوغ ويمارغ ، فلما أزعجه الوفد طلقها مكرها، وأرسلها إليهما - فلما رآها رجال الوفد علي هذه الصورة العظيمة وما اشتملت عليه من الجمال المفرط قالوا. ما حملت الأرض أجمل من هذه

وكانت سعاد، أو سعدى، قد رزقت من الجمال الساحر ما جعلها فتنة لمن رآها ولا غرو أن يكون لجمال البادية هذه الفتنة على حد قول المتنبى . . .

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

وافتتن رجال معاوية بسعاد، فكانت موضع إعجابهم وإجلالهم طول الطريق، يأتمرون بأمرها ويهتدون بهديها. وفارقها ابن الحكم وفي نفسه ألف حسرة، وقد كتب لأمير المؤمنين معاوية كتاباً دفعه إلى الوفد فكان مما كتبه.

اعـــذر فإنـك لو أبصـرتهـا لجـــرت منك الأمانى علـــى تمثال إنســـان

وســـوف تـــأتيـك شمس يعدلهـــا عند البرية من أنس ومن جـــــان

حوراء يقصر عنها الوصف إن وصفت أقـــول ذلـك فى سر وإعـــــلان

ووصل الوفد بسعاد إلي قصر معاوية. فلما قرأ كتاب ابن الحكم قال: لقد أحسن فى الطاعة، ولكنه أطنب فى ذكر الجارية ولئن كانت أعطيت حسن النغم مع هذا الوصف الحسن فهى أكمل البرية.

فأمر معاوية بإحضار سعاد. فلما مثلت بين يديه استنطقها فإذا هى أحسن الناس كلاماً، وأكملهم شكلاً ودلالا. فافتتن بها ورغب زواجها. وحدثته نفسه بالتعويض على الأعرابى وترغيبه بالبذل الكثير من المال والأنعام ومرتبات بيت المال والجوارى. وغير ذلك مما يرضيه ويسد مطامعه، حتى يسكت عن المطالبة بسعاد والتحدث عنها بين القبائل وأهل الأمطار

فأمر بإحضار، وقال له· يا أعرابى هذه سعدى، ولكن هل لك عنها سلوة بأفضل الرغبة؟

قال الأعرابى. نعم إذا فرقت بين رأسى وجسدى فقال له معاوية· أعوضك

منها يا أعرابى ثلاث جوار حسان أيضاً مع كل جارية ألف دينار. وأعطيك من بيت المال ما يكفيك فى كل سنة. ويعينك على صحبتهن.

فشق الأعرابى شهقة ظن معاوية أنه مات منها. قال له. ما بالك يا أعرابى؟ قال: شر بال وأسوأ حال، استجرت بعدلك من جور ابن الحكم فاتبعت مثله، فبمن أستجير من جورك؟ ثم أنشأ يقول :

لا تجعلنى والأمثال تضرب بى | كالمستجير من الرمضاء بالنـــار
اردد سعاد على حيران مكتئب | يمسى ويصبح فى هم وتذكــار
قـد شفـه قلـق مـا مثله قلق | وأسعر القلب منه أى أسعــار
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها | وأصبح القلب عنها غير صبار

فغضب معاوية غضباً شديداً. ثم قال: يا أعرابى، أنت مقر أنك طلقتها، ومروان مقر بأنه طلقها.. ونحن نخيرها.. فإن اختارتك أعدناها إليك بعقد جديد. وإن اختارت سواك زوجناه بها.

ثم خاطبها معاوية وقال: ما تقولين يا سعدى، أيهما أحب إليك، أمير المؤمنين فى عزه وترفه وسلطانه وما تصيرين إليه من عزة، أو مروان بن الحكم فى عسفه وجوره، أو هذا الأعرابى فى فقره وسوء حاله.

فأجابت.

هذا ـ وإن كان فى فقـر وإضـــرار | أعز عندى من قومى ومن جارى
وصاحـب التاج أو مـروان عاملـه | وكــل ذىّ درهــم عندى ودينــار
هذا ـ وإن أصبـح فى أطمـار [1] | وكـان فى نقــص مــن اليســار
أكـــثر عندى مـــن أبى وجـــار | وصاحــب الدرهـــم والدينـــار

أخشى أن غدرت حر النار .

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا لغدرات

---

(١) اطمار : الطمر : الثوب الخلق كما فى القاموس .

الأيام، وإن لي معه صحبة لا تنسى ومحبة لا تبلى، والله إنى لأحق من صبر معه فى الضراء كما تنعمت معه فى السراء.

فدهش معاوية وعجب كل من كان حاضراً. ثم أمر له بها وأعادها له بعقد جديد، وأمر لهما بألف دينار. فما كاد الأعرابى يسمع ذلك حتى وثب عن الأرض من شدة فرحه فأخذها وانصرف، وهو يسرع فى خطواته ويقول:

خلوا الطريق للأعرابى ألم ترقوا ويحكم مما بى

فضحك معاوية وضحك الناس، ثم قال له.... مهلاً يا أعرابى لن نسمح لك بها الآن. ثم أمر بها فأدخلت فى قصوره حتى انقضت عدتها من ابن الحكم، وبعد ذلك أمر بدفعها إلى الأعرابى.

ذكاء إياس

كان إياس بن معاوية القاضي من أكابر العقلاء. وكان عقله يهديه إلى سلوك طريق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها.

فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة. فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج. فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب. ثم حج.

فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه، فأنكره وجحده. فجاء إلى القاضى إياس، وقص عليه القصة، فقال القاضى هل أخبرت بذلك أحداً غيرى قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلى؟ قال: لا. قال: انصرف واكتم أمرك، ثم عد إلى بعد غد. فانصرف.

ثم إن القاضى دعا ذلك الرجل المستودع. فقال له: قد حصل عندى أموال كثيرة، ورأيت أن أودعها عندك. فاذهب وهيئ لها موضعاً حصيناً.

فمضى ذلك الرجل. وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل. فقال له القاضى إياس. امض إلى خصمك واطلب منك وديعتك، فإن جحدك فقل له امض معى إلى القاضى إياس، أتحاكم أنا وأنت عنده.

فلما جاء إليه دفع إليه وديعته، فجاء إلى القاضى وأعلمه بذلك. ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضى طامعاً فى تسليم المال فسبه القاضى وطرده.

وكانت هذه الواقعة مما يدل على عقله وصحة فكره[1].

ومن نوادره أنّه سمع نُبَاح كلب لم يَرَه.، فقال: هذا نباح كلب مربوط على شَفير بئر، فَنَظروا فكان كما قال، فقيل له في ذلك، فقال: سمعت عند نُبَاحه دَوِيّاً من مكان واحد، ثمّ سَمِعْت بعده صَدًى يُجيبه، فعلمت أنه عند بئر.

ومن نوادره أيضاً أنَّه رأى أثر اعتلاف بعير، فقال: هذا بعير أعْوَر، فنظروا

(١) المستطرف: (١/ ٢١).

فكان كمال قال.

فقيل له: مِنْ أَيْن قلت ذاك؟ فقال: لأنّى وَجَدْت اعتِلافَه من جهَة واحدة.

وَمِنْ نوادره أنّه رأى قَوْماً يأكُلُون تمراً ويلقون النَّوَى متفرِّقاً، فرأى الذُّباب يجتمعن فى موضع من التمر، ولا يَقْرَبْن موضِعاً آخر، فقال إياس: إن فى هذا الموضع حيَّة، فنظروا فوجَدُوا الأمر كما قال.

فقيل له: مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ؟ قال: رأَيْت الذبابَ لا يَقْرَبْنَ هذا الموضع، فقلتُ: يَجِدن ريحَ سمّ فقلتُ حيّة.

ونظَرَ إلى دِيك يَنقُر ولا يُقَرْقِر، فقال: هذا هَرِم، لأنَّ الشَّابّ إذا وجَد حبًّا نقره وقَرْقَر لتجتمع الدَّجاج إليه.

ورأى جارية فى المسجد وعلى يدها طَبَق مُغَطى بمنديل، فقال: معها جرَاد، فكان كما قال.

فسُئِل، فقال: رأيتُه خفيفاً على يدها.

ومِنْ نوادره أنّ رَجُلَيْن احتكَمَا إليه فى مالٍ، فجَحَد المطلوبُ إليه المال، فقال للطَّالِب: أيْن دفعت إليه المال؟ فقال: عند شجرة فى مكان كذا، قال: فانطلق إلى هذا الموضع لعلَّك تتذكرُ كيف كان أمر هذا المال، ولعلّ الله أن يوضح لك سبَبًا.

فمضى الرَّجُلُ وحَبَس خَصمه، فقال إياس بعد ساعة: أَتَرَى خَصمَكَ قد بلغ موضع الشَّجَرة؟ قال: لا بعد ساعة، قال: قُمْ يا عَدُوَّ الله، أنتَ خائن، قال: فأقِلْنِي أقالَكَ الله، فاحتفظ به حتى أقر وردّ المال.

حسن الوفاء

يحكى عن العباس، صاحب شرطة المأمون، أنه قال: دخلت يوماً إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد، وبين يديه رجل مكبل بالحديد. فلما رآنى قال لى: يا عباس! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين؛ قال: خذ هذا إليك، فاستوثق منه. واحتفظ به، وبكر به إلىّ فى غد، واحترز كل الاحتراز.

قال العباس. فدعوت جماعة، فحملوه، إذ لم يقدر أن يتحرك. وقلت فى نفسى مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى. فأمرتهم، فتركوه فى مجلس لى فى دارى.

فأخذت أسأله عن قضيته وعن حالته، ومن أين هو. فقال: أنا من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهله خيراً. فمن أنت من أهلها؟ قال. وعمن تسأل؟ قلت أتعرف فلاناً؟ قال. ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت. وقع لى معه قضية. فقال: ما كنت بالذى يعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه!

فقلت: كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا، حتى إن الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت فى جملة القوم. فبينما أنا هارب فى بعض الدروب إذا بجماعة يعدون خلفى، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم. فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك، وهو جالس على باب داره. فقلت: أغثنى أغاثك الله! قال: لا بأس عليك! ادخل الدار. فدخلت فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة. فدخلتها. ووقف الرجل على باب الدار. فما شعرت إلا وقد دخل. والرجال معه يقولون: والله عندك! فقال: دونكم الدار ففتشوها! ففتشوها، حتى لم يبق سوى تلك المقصورة، وامرأته فيها. فقالوا: هو هاهنا! فصاحت بهم المرأة ونهرتهم. فانصرفوا وخرج الرجل. وجلس على باب داره ساعة، وأنا نائم أرتجف. ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف. فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك فجلست. فلم ألبث حتى دخل الرجل. فقال: لا تخف! قد صرف الله عنك شرهم، وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى! فقلت: جزاك الله خيرا.

فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها. وأفرد لى مكاناً فى داره، ولم يحوجنى إلى شىء، ولم يفتر عن تفقد أحوالى، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنته، إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها. فقلت له: أتأذن لى فى الخروج، حتى أتفقد حال غلمانى، فلعلى أقف منهم على خبر! فأخذ على المواثيق بالرجوع إليه.

فخرجت وطلبت غلمانى. فلم أجد لهم أثراً. فرجعت إليه وأعلمته الخبر، وهو مع كل هذا لا يعرفنى، ولا يسألنى، ولا يعرف اسمى، ولا يخاطبنى إلا بالكنية، فقال لى: علام تعزم! فقلت: قد عزمت على التوجه إلى بغداد، فقال: إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج. وها أنذا قد أعلمتك. فقلت له: إنك تفضلت على هذه المدة. ولك عهد الله أنى لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت.

فدعى غلاماً له أسود، وقال له: اسرج الفرس الفلانى، ثم جهز آلة السفر. فقلت فى نفسى: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحى. فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب.

فلما كان يوم خروج القافلة، جاء فى السحر وقال لى: يا فلان! قم، فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها. فقلت فى نفسى: كيف أصنع.. وليس معى ما أتزود به. ولا ما أكترى به ركوبا! ثم قمت. فإذا هو وامرأته يحملان ملابس فاخرة وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جاء لى بسيف ومنطقة، فشدهما فى وسطى. ثم قدم بغلاً، فحمل عليه صندوقين، وفوقهما فرش، وكان فى الصندوقين خمسة آلاف درهم. وقدما إلىّ الفرس الذى كان جهزه. وقال: اركب. وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إلى من التقصير فى أمرى. وركب معى يشيعنى.

وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأوفى بعهدى له، فى مجازاته ومكافأته. واشتغلت بأمر المؤمنين. فلم أتفرغ لأن أرسل إليه من يكشف خبره. فلهذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فضله ومجازاته على صنعه، بلا كلفة عليك ولا مؤونة تلزمك. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: إنا ذلك الرجل. وإنما الضر الذى أنا فيه غير عليك حالى وما كنت تعرفه منى.

ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب، حتى تثبت من معرفته. فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه. ثم قلت له: فما الذى أصارك إلي ما أرى؟.

فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك، فنسبت إلى وبعث أمير المؤمنين بجيوش، فأصلحوا البلد، وأخذت أنا، وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت، وبعث بى إلى أمير المؤمنين. وأمرى عنده عظيم، وخطبى لديه جسيم، وهو قاتلى لا محالة. وقد أخرجت من أهلى بلا وصية. وتبعنى من غلمانى من ينصرف إليهم بخبرى، وهو نازل عند فلان. فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى، حتى أوصيه بما أريد، فقد جاوزت حد المكافأة. وقمت لى بوفاء عهدك.

قال العباس: فقلت يصنع الله خيراً. ثم أحضرت حداداً فك قيوده وأزال ما كان فيه من الإنكال. وادخلته حمام دارى وألبسته من الثياب ما احتاج إليه ثم سيرت من أحضر إليه غلامه. فلما رآه جعل يبكى ويوصيه. فاستدعيت نائبى، وقلت: جهز عشر ركائب ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا ومن الزاد كذا. وأحضرت عشرة آلاف درهم وخمسة آلاف دينار. وقلت لنائبى فى الشرطة: خذ هذا وشيعه إلى حد «الأنبار».

فقال لى الرجل: إن ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم، وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث فى طلبى كل من على بابه، فأرد وأقتل. فقلت له: انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى. فقال، والله ما أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك! فإن احتجت إلى حضورى حضرت.

فقلت لنائبى: إن كان الأمر على ما يقول، فليكن فى موضع كذا، فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته. وإن أنا قتلت، فقد وفيته بنفسى كما وفانى بنفسه.

وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجتهد فى إخراجه من بغداد.

فأخذه وصيره فى مكان أثق به. وتفرغت لنفسى وتحنطت، وجهزت لى كفناً. فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون فى طلبى يقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك وقم. فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس، وعليه ثيابه، وهو ينتظرنا. فقال: أين الرجل! فسكت. فقال: ويحك! أين الرجل؟

فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع منى: فقال: لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله، ما هرب ولكن اسمع حديثى وحديثه، ثم شأنك وما تريد أن تفعله فى أمرى.

قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين. كان من حديثى معه كيت وكيت. وقصصت عليه القصة جميعها. وعرفته أننى أريد أن أفى له، وأن أكافئه على ما فعله معى. وقلت: أنا ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين. إما أن يصفح عنى فأكون قد وفيت وكافأت. وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى، وقد تحنطت وها كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك!. لا جزاك الله عن نفسك خيراً، إن فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة وطول العهد. بهذا لا غير! هلا عرفتنى خبره، فكنا نكافئه عنك، ولا نقصر فى وفائك له!

فقلت: يا أمير المؤمنين! إنه ها هنا، قد حلف ألا يبرح حتى يعرف سلامتى. فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: هذه منة أعظم من الأولى! اذهب الآن. وطيب نفسه وسكن روعه وآتنى به حتى أتولى مكافئته.

قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له: لينزل خوفك! إن أمير المؤمنين قال: كيت وكيت. فقال الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه.

لا آخذ مالا على الأمانة

يحكى أن رجلا قال: كنت أقرأ على الشيخ أبى عمر بن أحمد بن شاهين جزءاً من الحديث فى حانوت رجل عطار. فبينما أنا جالس معه فى الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر فى طبق يحمله على يده. فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: أعطنى بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها، فأخذها فى طبقه . وأراد أن يمضى فسقط الطبق من يده، فانكب جميع ما فيه. فبكى الطواف وجزع، حتى رحمناه.

فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء.

فقال سمعا وطاعة. فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها. ودفع له ما عدم منها وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له: لا تجزع، فأمر الدنيا أهون من ذلك. فقال الطواف: أيها الشيخ ليس جزعى لضياع ما ضاع. لقد علم الله تعالى أنى كنت فى القافلة الفلانية، فضاع لى هميان[1]، فيه أربعة آلاف دينار، ومعها فصوص قيمتها كذلك. فما جزعت لضياعها، حيث كان لي غيرها من المال. ولكن ولد لى ولد فى هذه الليلة، فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء. ولم يكن عندى غير العشرة دراهم، فخشيت أن أشترى بها حاجة النفساء فأبقى بلا رأس مال، وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على الكسب، فقلت فى نفسى أشترى بها شيئاً من العطر. فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئاً أسد به رمق أهلى، ويبقى لى الفرار منهم. فهذا الذى أوجب جزعى.

قال أبو حفص: وكان رجل من الجند جالساً إلى جانبى يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص: يا سيدي، أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً. فدخلنا منزله فأقبل على الطواف وقال له: عجبت من جزعك. فأعاد عليه القصة.

فقال له الجندى: وكنت فى تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان.

---

(١) الهيمان: كيس النقود.

فعلم الجندى صحة قوله فقال له: وما علامة الهميان؟ وفى أى موقع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة. قال الجندى: إذا رأيته أتعرفه؟ قال: نعم فأخرج له الجندى همياناً ووضعه بين يديه. فحين رآه صاح وقال: هذا هيمانى والله وعلامة صحة قولى أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت. ففتح الهيمان فوجده كما ذكر.

فقال الجندى: خذ مالك بارك الله لك فيه. فقال الطواف: إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر، فخذها. وأنت فى حل منها، نفسى طيبة بذلك.

قال الجندى: ما كنت لآخذ على أمانتى مالا. وأبى يأخذ شيئاً. ثم دفعها للطواف جميعاً. فأخذها ومضى، ودخل الطواف وهو من الفقراء وخرج من الأغنياء.

جزاء العفاف

يحكى فى أيام الحروب الصليبية أن الأمير بدر الدين أبى المحاسن يوسف المهمندار، المعروف بمهمندار العرب، قال: حكى لى الأمير شجاع الدين محمد الشيرازى - متولى القاهرة فى الأيام الكاملية ٦٠٣هـ - قال: بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فأكرمنا. وكان الرجل شديد السمرة، وهو شيخ كبير، فحضر له أولاد بيض الوجوه، حسان الأشكال. فقلنا له: هؤلاء أولادك؟ فقال نعم. وكأنى بكم وقد أنكرتم بياضهم وسوادى. فقلنا: نعم.

قال: هؤلاء أمهم أفرنجية أخذتها فى أيام الملك الناصر صلاح الدين،وأنا شاب. فقلنا وكيف أخذتها؟ قال: حديثى بها عجيب. قلنا أتحفنا به.

قال: زرعت كتاناً فى هذه البلدة، وقلعته، ونفضته. فانصرف عليه خمسمائة دينار. ولم يبلغ الثمن إلى أكثر من ذلك. فحملته. فما زاد على تلك القيمة شيئاً. فوصلت به إلى عكاء، فبعت بعضه بالأجل، والبعض تركته عندى. واكتريت حانوتاً أبيع فيه على مهلى، إلى حيث انقضاء المدة.

فبينما أنا أبيع إذا مرت بى امرأة إفرنجية - ونساء الإفرنج يمشين فى الأسواق بلا نقاب - فأتت تشترى منى كتاناً. فرأيت من جمالها ما بهرنى. فبعتها وسامحتها. ثم انصرفت.

وعادت إلى بعد أيام، فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الأولى. فتكررت إلى. وعلمت أنى أحبها. فقلت للعجوز التى معها: قد تلفت بحبها. وأريد منك الحيلة. فقالت لها ذلك. فقال: تروح أرواحنا الثلاثة - أنا وأنت وهو. فقلت لها: قد سمحت بروحى فى حبها. واتفق الحال على أن أدفع خمسين دينارا صورية. فوزنتها وسلمتها للعجوز. فقالت نحن الليلة عندك.

فمضيت وجهزت ما قدرت عليه، من مأكول ومشروب وشمع وحلواء.

فجاءت الإفرنجية، فأكلنا وشربنا، وجن الليل. ولم يبق غير النوم. فقلت فى نفسى: أما تستحى من الله ، وأنت غريب تعصى الله مع امرأة أجنبية! اللهم أنى

أشهدك أنى قد عففت عنها هذه الليلة، حياء منك، وخوفاً من عقابك.

ثم نمت إلى الصبح، فنامت إلى الصبح، وقمت فى السر ومضت إلى حالها، ومضيت أنا إلى حانوتى. فجلست فيه وإذا هى قد عبرت على هى والعجوز، وهى مغضبة، وكأنها القمر، فهلكت. فقلت فى نفسى: من هو أنت حتى تترك هذا الحسن البارع؟ ثم لحقت العجوز وقلت: أرجعنى. فقالت: لا والله، ما أرجع إليك إلا بمئة دينار. فقلت: نعم رضيت. فوزنت مئة دينار.

فلما حضرت المرأة لحقتنى الفكرة الأولى، وعففت عنها، وتركتها حياء من الله تعالى. ثم مضت ومضيت إلى موضعى. ثم عبرت بعد ذلك على، وكانت مستعرية. فقالت: والله... ما بقيت تفرح بى عندك إلا بخمسمائة دينار، أو تموت كمدا. فارتفعت قيمتها فى نظرى، وعزمت على أن أصرف لها ثمن جميع الكتان.

فبينما أنا كذلك نادى المنادى: معاشر المسلمين! أن الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت. وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى جمعة. فانقطعت عنى. وأخذت أنا فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى، والمصالحة على مابقى لى منه، وأخذت معى بضاعة حسنة، وخرجت من عكا وفى قلبى منها مافيه.

فوصلت إلى دمشق، وبعت البضاعة بأوفى ثمن، بسبب فراغ الهدنة. ومن الله بكسب وافر. وأخذت أتجر فى الجوارى، عسى يذهب ما بقلبى من الإفرنجية. فمضت ثلاث سنين، وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى، من وقعة حطين وأخذ جميع الملوك وفتحه بلاد الساحل بإذن الله تعالى.

فطلب منى جارية للملك الناصر، فأحضرت جارية حسناء، فاشتروها له منى بمئة دينار، فدفعوا لى تسعين ديناراً وبقيت لى عشرة دنانير، لم يجدوها فى الخزانة ذلك اليوم، لأنه أنفق جميع الأموال. فشاوروه على ذلك. فقال. أمضوا به إلى الخيمة التى فيها السبى من نساء الفرنج، فخيروه فى واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التى له.

فأتيت الخيمة، فعرفت غريمتى الإفرنجية، فقلت: أعطونى هاتيك.

فأخذتها ومضيت إلى خيمتى وخلوت بها، وقلت لها: أتعرفيننى؟ قالت: لا.

فقلت: أنا صاحبك التاجر الذى جرى لى معك ما جرى، وأخذت منى الذهب، وقلت ما بقيت تبصرنى إلا بخمسمائة دينار. وقد أخذتك ملكاً بعشرة دنانير.

فقالت: مد يدك: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فأسلمت وحسن إسلامها. فقلت: والله لا وصلت إليها إلا بأمر القاضى. فذهبت إلى ابن شداد وحكيت له ما جرى. فعجب، وعقد لى عليها.

ثم رحل العسكر وأتينا دمشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الأسرى والسبايا، باتفاق وقع بين الملوك، فردوا من كان أسيراً من الرجال والنساء. ولم يبق إلا التى عندى. فسألوا عنها، واتضح الخبر أنها عندى. وطلبت منى. فحضرت، وقد تغير لونى، وأحضرتها معى، بين يدى مولانا السلطان الملك الناصر. والرسول حاضر. فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول: ترجعين إلى بلادك وإلى زوجك، فقد فككنا أسرك وأسر اغيرك.

فقالت: يا مولانا السلطان: أنا قد أسلمت، وحبلت، وهابطنى كما ترون، وما بقيت الإفرنج تنتفع بى، فقال لها الرسول: أيهما أحب إليك: هذا المسلم أو زوجك الإفرنجى فلان؟ فأعادت عبارتها الأولى .

فقال الرسول لمن معه من الإفرنج: اسمعوا كلامها. ثم قال الرسول خذ زوجتك، فوليت بها. فطلبنى ثانياً. وقال أن أمها أرسلت معى وديعة، وقالت أن ابنتى أسيرة وأشتهى أن توصل لها هذه الكسوة. فتسلمت الكسوة ومضيت إلى الدار، وفتحت القماش، فإذا هو قماشها بعينه، قد سيرته لها أمها، ووجدت الصرتين الذهب، والخمسين ديناراً والمئة دينار، كما هما بربطتى، لم يتغيرا. وهؤلاء الأولاد منها، وهى التى صنعت لكم هذا الطعام.

القاضى الفاضل

قال ابن الأثير: حدثنى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى بمدينة دمشق سنة ٥٧٧هـ وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية: كان من العادة أن كلا من أرباب البيوت، إذا نشأ له ولد أحضره إلى ديوان المكاتبات يتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع. فأرسلنى والدى، وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عقلان، إلى الديار المصرية. فى أيام الحافظ العبيدى. وهو أحد خلفائها، فدخلت ديوان المكاتبات. وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام، وهوصاحب الإنشاء بمصر، موفق الدين أبا الحجاج يوسف المعروف بابن الخلال. فلما مثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى، ورحب بى ثم قال: ما الذى أعددت لفن الإنشاء وكتابته؟

فقلت: ليس عندى سوى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة. فقال: فى هذا بلاغ. ثم أمرنى بملازمته. فلما ترددت إليه، وتدربت عليه، وطال تدربى بين يديه أمرنى أن أحل عليه ديوان الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره. ثم أمرنى أن أحله مرة أخرى فحللته.

كان للقاضى الفاضل صديق خصيص به. وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين. وكان فيه فضيلة تامة. فوقع بينه وبين الملك أمر، فغضب عليه وهم بقتله، فتسحب إلى بلاد التتر وتوصل إلى أن صار وزيرا عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الناصر بما يؤذيه.

فلما بلغه ذلك نفر منه، وقال للفاضل: اكتب إليه كتاباً عرفه أننى أرضى عليه، واستعطفه غاية الاستعطاف أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه.

فتخير الفاضل بين الاثنين، صديق يعز عليه وملك لا يمكنه مخالفته. فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك. فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمد له والصلاة والسلام على النبى وكتب «إن شاء الله تعالى» كما جرت به العادة فى الكتب فشدد «إن».

ثم أوقف الملك على الكتاب أقبل ختمه. فقرأه فى غاية الكمال، وما فهم

«أن» وكان قصد الفاضل **﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾**[1] .

فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً .

فلما أراد أن ينهى الكتاب ويكتب «إن شاء الله تعالى» مد النون وجعل فى خرها الفاً، وأراد فى ذلك **﴿إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾** [2] .

فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة. ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك[3].

---

(١) القصص ٢٠

(٢) المائدة ٢٤

(٣) المستطرف (١/ ٦٠)

جزاء الأمانة

قال أبو حبيب المغربى: ضاقت أحوالى، فلم يبق لى جارية ومنزل أسكنه، فبعت المنزل بألف دينار، وخرجت إلى مكة بالجارية، فقلت لها: يكون هذا المال فى وسطك، فكانت إذا نزلت فى منزل حفرت فى خيمتها حفرة صغيرة وأودعتها المال وطمتها. فإذا نودى بالرحيل أثارته وشدته إلى وسطها.

فاتفق أن رحلنا عن منهل، ونسيت المال فى الحفرة فأخبرتنى الجارية بذلك، فحار فكرى وضاقت روحى ولم أدر ما أعمل.

ودخلنا مكة، فحدثتنى نفسى ببيعها، فلم يطعنى قلبى. فلما رجعنا ونزلنا بالمنهل الذى خلفت فيه الكيس، رأيت صحراء وغلاماً على رابية يرعى غنيمات له وأقبلت أنظر إلى الأرض. فقال لى: ويحك ما تطلب فقلت: شيئاً أودعته أرض هذا المنهل، فقال: صفه لى. قلت: كيس أحمر فيه مال. فقال: ومالى فيه لو دللتك عليه؟ قلت نصفه. قال: ها هو ذاك فى الرابية.

فلما رأى تحيرى فيه قام حتى أخرجه ووضعه بين يدى، فحمدت الله، وقسمت الكيس قسمين، وخيرته أحدهما. فقال: إنى أرى قسمى فيه كثيراً، وأنا أكتفى بنصف أحد القسمين. فقسمته. فقال: تقسمه أيضاً قسمين.

ففعلت. فقال: ما أعجب أمرك! أتركه كله حراماً ونصفه حلالاً وآخذ منه شيئاً؟ هذا مالا يكون. انصرف بمالك.

فقلت له: يا غلام أنت حر أم مملوك. فقال: مملوك... قلت لمن: قال لشيخ هذا الحى.

فدخلت الحى فألقيت الشيخ والناس عنده. فقلت له: رأيت غلاماً فى المنهل يرعى غنيمات، وأسألك أن تبيعه فقال: اشتريته بعشرة دنانير. فقلت: أنا آخذه بعشرين. فقال: وإن لم أبعه. قلت: أعطيتك فيه ثلاثين ديناراً.

فقال لمن حوله: أما تسمعون ما يقول. وما يحملك على أن تبذل فيه هذا الثمن؟ فقلت جمع على ضالتى، فقررت أن أعتقه وأبتاع الغنم التى يرعاها له وأملكه إياها، فقال قررت أن تفعل به هذا لفعلة واحدة من الجميل أولاكها.

ولنا فى كل يوم منذ ملكناه حسنة. تقتضى أكثر ما تؤتيه. وأنا أشهد الجماعة أنه حر لوجه الله. وأن ما يرعاه له.

فانصرف عن الشيخ وقد بلغ لى ما أملته له[1].

(١) نزهة القارئ (٢/ ٣١).

قال الربيع بن سليمان: قال الإمام الشافعى: فارقت مكة، وأنا ابن أربع عشرة سنة، لا نبات بعارضى - من الأبطح إلى ذى طوى، وعلى بردتان يمانيتان، فرأيت ركباً، فسلمت عليهم، فردوا على السلام، ووثب إلى شيخ كان فيهم وقال: سألتك بالله إلا ما حضرت طعامنا؟. وما كنت أعلم أنهم أحضروا طعاماً، فأجبت مسرعاً، غير محتشم. فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس، ويدفعون بالراحة. فأخذت كأخذهم، كى لا يستبشع عليهم أكلى. والشيخ ينظر إلى، ثم أخذت السقاء، فشربت، وحمدت الله وأثنيت عليه. فأقبل على الشيخ وقال: أمكى أنت؟ قلت: مكى. قال: أقرشى أنت؟ قلت قرشى.

ثم أقبلت عليه وقلت يا عم! بم استدللت على؟ قال: أما فى الحضر فبالزى، وأما فى النسب فبأكل الطعام، لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه. وذلك فى قريش خصوصاً.

فقلت للشيخ: من أين أنت؟ قال من يثرب، فقلت: فمن العالم بها، والمتكلم فى نص كتاب الله تعالى، والمفتى بأخبار الرسول؟ قال، سيد بنى أصبح، مالك بن أنس. فقلت: واشوقاه إلى مالك! فقال لى: قد بل الله شوقك.. انظر إلى هذا البعير الأورق، فإنه أحسن جمالنا، ونحن على رحيل، ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك.

فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها إلى بعض، وأركبونى البعير الأورق[1]. وأخذ القوم فى السير وأخذت أنا فى الدرس. فختمت، من مكة إلى المدينة، ست عشرة ختمة - ختمة بالليل وختمة بالنهار - ودخلت المدينة فى اليوم الثامن، بعد صلاة العصر، فصليت العصر فى مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر، فسلمت على النبى - ﷺ - ولذت بقبره. فرأيت مالك بن أنس متزراً ببردة متشحاً بأخرى. قال: حدثنى نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر - وضرب بيده إلى

(١) الأورق: البعير الذى فى لونه بياض إلى سواد.

قبر رسول الله.

فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة، وجلست حيث انتهى بى المجلس، فأخذت عوداً من الأرض، فجعلت كلما أملى مالك حديثاً كتبته بريقى على يدى. والإمام مالك ينظر إلى من حيث لا أعلم، حتى انقضى المجلس، وانتظرنى مالك أن أنصرف، فلم يرنى انصرفت، فأشار إلى، فدنوت منه، فنظر إلى ساعة. ثم قال: أمكى أنت؟ قلت مكى. قال: أقرشى أنت؟ قلت قرشى.

قال: كملت أوصافك، لكن فيك إساءة أدب. قلت: وما الذى رأيت من سوء أدبى؟ قال رأيتك وأنا أملى ألفاظ الرسول تلعب بريقك على يدك. فقلت له: عدمت البياض، فكنت أكتب ما تقول.

فجذب مالك يدى إليه.، وقال: ما أرى عليها شيئاً. فقلت: إن الريق لا يثبت على اليد. ولكن فهمت جميع ما حدثت به، منذ جلست، وحفظته إلى حين قطعت.

فتعجب الإمام مالك من ذلك. فقال: أعد على ولو حديثاً واحداً. فقلت: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر - وأشرت بيدى كإشارته- حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثاً حدث من حين جلس إلى وقت قطع المجلس.

وسقط القرص[1] فصلى مالك المغرب، وأقبل على عبده وقال: خذ بيدك سيدك إليك، وسألنى النهوض معه، فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه، فلما أتيت الدار أدخلنى الغلام إلى خلوة فى الدار، وقال لى القبلة فى البيت هكذا، وهذا إناء فيه ماء. وهذا بيت الخلاء.

فما لبث مالك حتى أقبل، هو والغلام، حاملا طبقاً، فوضعه من يده، وسلم الإمام على. ثم قال للعبد: اغسل علينا. ثم وثب الغلام إلى الإناء، وأراد أن يغسل على أولا. فصاح عليه مالك وقال: الغسل فى أول الطعام لرب البيت، وفى آخره للضيف. فاستحسنت ذلك من الإمام مالك. وسألته عن شرحه،

---

(١) المقصود الشمس.

فقال: إنه يدعو الناس إلى كرمه، فحكمه أن يبتدئ بالغسل. وفى آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه.

فكشف الإمام عن الطبق، فكان فيه صحيفتان فى إحداهما لبن وفى الأخرى تمر. فسمى الله تعالى وسميت، فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام. وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية. فقال لى: يا أبا عبد الله! هذا جهد من مقل إلى فقير معدم. فقلت :لا عذر على من أحسن، إنما العذر على من أساء.

فأقبل مالك يسألنى عن أهل مكة، حتى دنت العشاء الآخرة. ثم قام عنى وقال: حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع. فنمت ليلتى. فلما كان فى الثلث الأخير من الليل، قرع مالك على الباب. فقال: الصلاة يرحمك الله. فرأيته يحمل إناء فيه ماء، فتشبع على ذلك. فقال: لا يرعك ما رأيته، فخدمة الضيف فرض.

فتجهزت للصلاة، وصليت الفجر مع الإمام مالك فى مسجد رسول الله ﷺ والناس لا يعرف بعضهم بعضاً، من شدة الغلس. وجلس كل واحد منا فى مصلاه يسبح الله تعالى، إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال. فجلس مالك فى مجلسه بالأمس، وناولنى الموطأ، أمليه وأقرأه على الناس وهم يكتبونه فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره.

وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر. فما علم أحد من الإنس الذى كان بيننا أينا الضيف. ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع الموطأ، فأمليت عليهم حفظاً، منهم عبد الله بن الحكم وأشهب، وابن القاسم، قال الربيع واحتسب أنه ذكر الليث بن سعد.

ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبى، فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه، نظيف الثوب، حسن الصلاة. فتوسمت فيه خيراً، فسألته عن اسمه، فأخبرنى. وسألته عن بلده، فقال: العراق. فقلت: أى العراق؟ فقال: الكوفة. فقلت: من العالم بها، والمتكلم فى نص الكتاب، والمفتى بأخبار الرسول؟ فقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن، صاحبا أبى حنيفة. فقلت: ومتى عزمتم على الظعن؟ فقال فى غداة غد، وقت الفجر.

فعدت إلى مالك. فقلت له خرجت من مكة فى طلب العلم، بغير استئذان العجوز، أفأعود إليها، أو أرحل فى طلب العلم؟ فقال: العلم فائدة يرجع منها فائدة. ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلبه . . .

فلما أزمعت على السفر زودنى الإمام مالك. فلما كان فى السحر سار معى، مشيعاً إلى البقيع. ثم صاح بأعلى صوته: من يكرى راحلته إلى الكوفة؟ فأقبلت عليه وقلت: بم تكترى، وليس معك ولا معى شيء؟ فقال: انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة، فقرع على قارع الباب، فخرجت إليه، فأصبت ابن القاسم، فسألنى قبول هديته، فقبلتها، فدفع لى صرة فيها مائة دينار، وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالى. فاكترى لى بأربعة دنانير ودفع لى باقى الدنانير وودعنى وانصرف.

وصرت فى جملة الحاج، حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع وعشرين من المدينة. فدخلت المسجد بعد صلاة العصر، فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاماً دخل المسجد وصلى العصر، فما أحسن الصلاة. فقمت إليه ناصحاً. فقلت له: أحسن صلاتك، لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار. فقال: أظن أنك من أهل الحجاز؛ لأن فيكم غلظة وجفاء، وليس فيكم رقة أهل العراق. وأنا أصلى هذه الصلاة خمس عشرة سنة، بين يدى محمد بن الحسن وأبى يوسف، فما عابا على صلاتى قط!!

وخرج معجباً ينفض رداءه فى وجهى. فلقى للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد. فقال: أعلمتما فى صلاتى من عيب؟ فقالا: اللهم لا. قال: ففى مسجدنا من عاب صلاتى. فقالا: اذهب إليه فقل له بم تدخل الصلاة؟

فقال لى: يا من عاب صلاتى!! بم تدخل فى الصلاة؟ فقلت بفرضين وسنة. فعاد إليهما، وأعلمهما بالجواب. فعلما أنه جواب من نظر في العلم. فقالا: اذهب إليه فقل له. أما الفرضان وما السنة، فأتى إلى وقال: ما الفرضان وما السنة؟ فقلت له: أما الفرض الأول فالنية والثانى تكبيرة الإحرام. والسنة رفع اليدين. فعاد إليهما. فأعلمهما بذلك.

فدخلا المسجد. فلما نظرا إلى أظنهما ازدريانى. فجلسا ناحية. وقالا اذهب إليه وقل له أجب الشيخين. فلما أتانى علمت أنى مسؤول عن شيء من العلم. فقلت: من حكم العلم أن يؤتى إليه. وما علمت لى إليهما حاجة فقاما من مجلسيهما إلى. فلما سلما على، قمت إليهما وأظهرت البشاشة لهما، وجلست بين يديهما.

فأقبل على محمد بن الحسن وقال أحرمى أنت؟ فقلت نعم. فقال أعربى أم مولى؟ فقلت: عربى. فقال: من أى العرب؟ فقلت: من ولد المطلب، قال: من ولد من؟ قلت: من ولد شافع. قال: رأيت مالكا؟ قلت: من عنده أتيت. قال: أنظرت فى الموطأ؟ قلت: أتيت على حفظه.

فعظم ذلك، ودعا بدواة وبياض وكتب مسألة فى الطهارة ومسألة فى الزكاة ومسألة فى البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء، ومن كل فى الفقه مسألة. وجعل بين كل مسألتين بياضاً. ودفع إلى الدرج. وقال: أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه وإجماع المسلمين فى المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج، فتأمله ونظر فيه. ثم قال لعبده خذ سيدك إليك. ثم سألنى النهوض مع العبد. فنهضت غير ممتنع. فلما صرت إلى الباب، قال لى العبد إن سيدى أمرنى أن لا تصير إلى المنزل إلا راكباً. فقلت له قدم، فقدم إلى بغلة بسرج محلى. فلما علوت على ظهرها رأيت نفسى بأطمار رثة، فطاف بى أزقة الكوفة، إلى منزل محمد بن الحسن. فرأيت أبوابا ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة. فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه، فبكيت، وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة. وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى.

ثم أقبل على محمد بن الحسن، وأنا فى بكائى. فقال: لا يرعك يا عبد الله ما رأيت، فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب، وما يطالبنى الله فيها بفرض، وإنى أخرج زكاتها فى كل عام، فأسر بها الصديق وأكبت بها العدو.

فما بت حتى كسانى محمد بن الحسن خلعة بألف درهم. ثم دخل خزانته، فأخرج لى الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبى حنيفة. فنظرت فى أوله وفى آخره.

ثم ابتدأت الكتاب فى ليلتى أتحفظه. فما أصبحت إلا وقد حفظته. ومحمد بن الحسن لا يعلم بشىء من ذلك. وكان المشهور بالكوفة بالفتوى، والمجيب فى النوازل، فأنا قاعد عن يمينه فى بعض الأيام، إذ سئل عن مسألة أجاب فيها، وقال هكذا قال أبو حنيفة. فقلت له: قد دهمت فى الجواب فى هذه المسألة. والجواب من قول أبى حنيفة كذا وكذا. وهذه المسألة تحتها المسألة الفلانية، وفوقها المسألة الفلانية، فى الكتاب الفلانى. فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر، فتصفحه ونظر فيه، فوجد القول كما قلت. فرجع عن جوابه إلى ما قلت. ولم يخرج إلى كتاباً بعد هذا.

فاستأذنته فى الرحيل. فقال ما كنت لآذن لضيف بالرحيل عنى، وبذل لى مشاطرة نعمته. فقلت: ما لهذا قصدت، ولا لذلك أردت، ولا رغبتى إلا فى السفر.

فأمر غلامه أن يأتى بكل ما فى خزائنه من بيضاء وحمراء، فدفع إلى ما كان فيها - وهو ثلاثة آلاف درهم، أقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم، وألقى الرجال حتى صرت ابن إحدى وعشرين سنة.

ثم دخلت العراق فى خلافة هارون الرشيد. فعند دخول الباب تعلق بى غلام، فلاطفنى وقال لى: ما اسمك. فقلت محمد بن إدريس الشافعى. فكتب ذلك فى لوح كان فى كمه. وخلى سبيلى. فأويت إلى بعض المساجد، أفكر فى عاقبة ما فعل، حتى إذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد، وأقبلوا يتأملون وجه كل رجل، حتى أتوا إلى. فقالوا للناس: لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة.

ثم أقبلوا على، وقالوا: أجب أمير المؤمنين. فقمت غير ممتنع. فلما بصرت بأمير المؤمنين سلمت عليه سلاماً بيناً. فاستحسن الألفاظ ورد على الجواب. ثم قال: تزعم أنك من بنى هاشم! فقلت يا أمير المؤمنين: كل زعم فى كتاب الله باطل. فقال: أين لى عن سبك. فانتسبت حتى لحقت آدم.

فقال الرشيد ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة إلا فى رجل من ولد المطلب.. هل لك أن أوليك قضاء المسلمين وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيهم

حكمك وحكمى على ما جاء به الرسول واجتمعت عليه الأئمة؟؟ فقلت: يا أمير المؤمنين لو سألتنى أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبداً.

فبكى الرشيد وقال: أتقبل عن عرض الدنيا شيئاً؟ قلت: يكون معجلاً. فأمر لى بألف دينار. فما برحت من مقامى حتى قبضتها. ثم سألنى بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتى، فلم تسع بعض المروءة غير المقاسمة فيما أنعم الله به على. فخرج لى قسم كأقسامهم.

ثم عدت إلى المسجد الذى كنت فيه فى ليلتى. فتقدم يصلى بنا غلام صلاة الفجر فى جماعة، فأجاد القراءة، ولحقه سهو. ولم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروج. فقلت له بعد السلام: أفسدت علينا وعلى نفسك. أعد فأعاد مسرعاً، وأعدنا. ثم قلت أحضر بياضاً أعمل لك باب السهو فى الصلاة والخروج منها.

فسارع إلى ذلك، ففتح الله عز وجل، فألفت له كتابا، من كتاب الله وسنة نبيه وإجماع المسلمين، وسميته باسمه، وهو أربعون جزءاً ـ يعرف بكتاب الزعفران ـ وهو الذى وضعته بالعراق، حتى تكامل فى ثلاث سنين.

وولانى الرشيد الصدقات بحران. وقدم الحجاج، فخرجت أسألهم عن الحجاز. فرأيت فتى فى قبته. فلما أشرت إليه بالسلام، أمر قائد القبة أن يقف، وأشار إلى بالكلام. فسألته عن الإمام مالك وعن الحجاز. فأجاب: بخير. ثم عاودته السؤال عن مالك فقال: أشرح لك أو أختصر؟ قلت: فى الاختصار البلاغة. فقال: فى صحة جسم، وله ثلاثمائة جارية.

فاشتهيت أن أراه فى حال غناه، كما رأيته فى حال فقره. فقلت له: أما عندك من المال ما يصلح للسفر؟ فقال: إنك لتوحشنى خاصة وأهل العراق عامة. وجميع ما لى فيه لك. فقلت: فيم تعيش؟ قال: بالجاه.

ثم نظر إلى وحكمنى فى ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية، وسرت على ديار ربيعة ومضر، فأتيت حران، ودخلتها يوم الجمعة، فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه. فقصدت الحمام. فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسى شعثاً،

فدعوت المزين. فلما بدأ برأسي وأخذ القليل من شعري، حضر قوم من أعيان البلد، فدعوه إلى خدمتهم. فسارع إليهم وتركني. فلما قضوا ما أرادوا منه، عاد إلى، فما أردته، وخرجت من الحمام، فدفعت إليه أكثر ما كان معي من الدنانير. وقلت له: خذ هذه. وإذا وقف بك غريب لا تحتقره، فنظر إلى متعجباً. فاجتمع بباب الحمام خلق كثير. فلما خرجت عاتبني الناس.

فبينما أنا كذلك إذ خرج بعض من كان في الحمام من الأعيان، فقدمت له بغلة ليركبها، فسمع خطابي لهم. فانحدر عن البغلة بعد أن استوى عليها. وقال لي أنت الشافعي؟ فقلت نعم. فمد الركاب مما يليني وقال: بحق الله اركب. ومضى بي الغلام مطرقاً بين يدي، حتى أتيت إلى منزل الفتى. فأظهر لي البشاشة. ثم دعا بالغسل، فغسل علينا. ثم حضرت المائدة. فسمى، وحبست يدي. فقال: مالك يا عبد الله! فقلت له: طعامك حرام على حتى أعرف من أين هذه المعرفة؟ فقال: أنا من سمع منك الكتاب الذي وضعته ببغداد، وأنت لي أستاذ. فقلت العلم بين أهل العلم رحم متصلة. فأكلت بفرح، إذ لم يعرف الله تعالى إلا بيني وبين أبناء جنسي.

وأقمت ضيفه ثلاثاً. فلما كان بعد ثلاث قال: إن لي حول حران أربع ضياع، ما بحران أحسن منها. أشهد الله إن اخترت المقام فإنها هدية مني إليك. فقلت: بم تعيش؟ قال: بما في صناديقي تلك ـ وأشار إليها، وهي أربعون ألف درهم. وقال أتجر بها. فقلت: ليس إلى هذا قصدت. ولا خرجت من بلدي لغير طلب العلم. قال: فالمال رداً من شأن المسافر. فقبضت الأربعين ألفاً وودعته خرجت من معونة حران وبين يدي أحمال.

ثم تلقاني الرجال وأصحاب الحديث. فيهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعي، فأجزت كل واحد منهم على قدر ما قسم له. حتى دخلت مدينة الرملة وليس معي إلا عشرة دنانير، فاشتريت بها راحلة، واستويت على كورها وقصدت الحجاز.

فما زلت من منهل إلى منهل، حتى وصلت إلى مدينة الرسول، بعد سبعة وعشرين يوماً، بعد صلاة العصر. فصليت العصر. ورأيت كرسياً من الحديد،

عليه مخدة من قباطى مصر، مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وحوله أربعمائة دفتر أو تزيد.

وبينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس قد دخل من باب النبى، وقد فاح عطره فى المسجد، وحوله أربعمائة أو يزيدون، يحمل ذيوله منهم أربعة.

فلما وصل قام إليه من كان قاعداً. وجلس على الكرسى. فألقى مسأله فى جراح العمد. فلما سمعت ذلك لم يسعنى الصبر، فقمت قائماً فى سور الحلقة. فرأيت إنساناً، فقلت له: قل الجواب كذا وكذا. فبادر بالجواب، قبل فراغ مالك من السؤال، فأضرب عنه مالك. وأقبل على أصحابه، فسألهم عن الجواب، قبل فراغ مالك من السؤال، فاضرب عنه مالك. وأقبل على أصحابه، فسألهم عن الجواب فخالفوه. فقال لهم: أخطأتم وأصاب الرجل. ففرح الجاهل بإصابته. فلما ألقى السؤال الثانى أقبل على الجاهل يطلب منى الجواب. فقلت له: الجواب كذا وكذا. فبادر بالجواب فلم يلتفت إليه مالك. وأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب. فخالفوه. فقال: أخطأتم وأصاب الرجل. فلما ألقى السؤال الثالث قلت له: قل الجواب كذا وكذا. فبادر بالجواب، فأعرض مالك عنه. وأقبل على أصحابه. فخالفوه فقال: أخطأتم وأصاب الرجل.

ثم قال للرجل: ادخل! ليس ذلك وحقك فدخل الرجل، طاعة منه لمالك. وجلس بين يديه فقال له مالك فراسة: أقرأت الموطأ؟ قال: لا. قال: فنظرت ابن جريج؟ قال: لا. فلقيت جعفر بن محمد الصادق؟ قال: لا. قال: فهذا العلم من أين؟ قال: إلى جانبى غلام شاب يقول لى قل الجواب كذا وكذا، فكنت أقول. فالتفت مالك والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك. فقال للجاهل. قم، فأمر صاحبك بالدخول إلينا.

فدخلت فإذا أنا من مالك بالموقع الذى كان الجاهل فيه جالساً بين يديه فتأملنى ساعة. وقال: أنت الشافعى؟ فقلت: نعم. فضمنى إلى صدره ونزل عن كرسيه. وقال: أتمم هذا الباب الذى نحن فيه حتى ننصرف إلى المنزل. فألقيت أربعمائة مسألة فى جراح العمد. فما أجابنى أحد بجواب، واحتجت أن آتى بأربعمائة جواب، فقلت الأول كذا وكذا. والثانى كذا وكذا. حتى سقط القرص

وصلينا المغرب. فضرب مالك بيده إلى

فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت. فقال: مم بكاؤك؟ كأنك خفت يا أبا عبد الله، إن قد لعبت الآخرة بالدنيا؟ قلت هو والله ذلك قال: طب نفساً، وقر عيناً. هذه هدايا خراسان وهدايا مصر. والهدايا تجيء من أقاصى الدنيا. وكان النبى يقبل الهدية ويرد الصدقة وإن لى ثلاث مئة قلعة من رق خراسان وقباطى مصر. وعندى عبيد بمثلها لم تستكمل الحلم، فهم هدية منى إليك. وفى صناديقى تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول. فلك منى نصفها.

قلت إنك موروث، وأنا موروث، فلا يبيت جميع ما وعدتنى به إلا تحت خاتمى ليجرى ملكى عليك. فإن حضرنى أجلى كان لورثتى دون ورثتك. وإن حضرك أجلك كان لى دون ورثتك. فتبسم فى وجهى وقال: أبيت إلا العلم. فقلت: لا يستعمل أحسن منه. وما لبث إلا وجميع ما وعدنى به تحت ختمى.

فلما كان فى غداة غد صليت الفجر فى جماعة وانصرفت إلى المنزل، أنا وهو، وكل واحد منا يده فى يد صاحبه، إذ رأيت كراعا[1] من جياد خراسان، وبغالاً من مصر. فقلت له: ما رأيت كراعاً أحسن من هذا. فقال: هو هدية منى إليك يا أبا عبد الله. فقلت: دع لك منها دابة. فقال: إنى أستحيى من الله أن أطأ قرافة فيها نبى الله بحافر دابة. فقلت إن ورع الإمام مالك يأمن على ماله.

فأقمت عنده ثلاثاً. ثم ارتحلت إلى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه. ثم أنفذت من يعلم بخبرى. فلما وصلت إلى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها، فضمتنى إلى صدرها، وضمتنى بعدها عجوز كنت آلفها وأدعوها خالتى.

فلما هممت بالدخول قالت لى العجوز: إلى أين عزمت؟ فقلت إلى المنزل.. فقالت: هيهات تخرج بالأمس من مكة فقيرا.. وتعود إليها مترفاً، تفخر على بزعمك بذلك. فقلت: ما أصنع؟ فقالت: نار بالأبطح فى العرب بإشباع الجائع وحمل المنقطع وكسوة العراة. فتربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة.

---

(١) الكراع: الخيل كما فى القاموس

ففعلت ما أمرت به. وسار بذلك الفعل الرجال على إباط الإبل، وبلغ ذلك مالكا. فبعث إلى يستحثنى على الفعل ويعدنى أنه يحمل إلى فى كل عام مثل ما صار لى منه. وما دخلت مكة وأنا أقدر على شىء مما جاء معى إلا على بغلة واحدة وخمسين ديناراً. فوقعت المقرعة. فناولتنى إياها أمة على كتفها قربة فأخرجتِ لها خمسة دنانير. فقالت لى العجوز: ما أنت صانع؟ فقلت: أجزها على فعلها. فقلت: ادفع إليه جميع ما تأخر معك. فدفعته إليها ودخلت إلى مكة، فما بت تلك الليلة إلا مديوناً.

وأقام مالك رضى الله عنه يحمل إلى فى كل عام مثل ما كان وقع إلى أولاً ـ إحدى عشرة سنة. فلما مات ضاق بى الحجاز، وخرجت إلى مصر، فعوضنى الله عبد الله بن الحكم. فقام بالكلفة.

فهذا جميع ما لقيته فى سفرى، فافهم ذلك يا ربيع. قال الربيع. وسألنى المزيد فى إملاء ذلك بحضرته، فما وجدنا للمجلس فرغة، فما وقع كتاب السفر إلى أحد غيرى[1].

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى (١/١٦٦ ـ ١٧٧)

حسن المشورة

يحكى عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن على أمور مؤلمة، لا تحتملها حراسة الخلافة، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك. فحبسه عنده.

وبلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى وكان والياً على الكوفة - ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميله إليه عنه. فتألم المنصور من ذلك، وساء ظنه وتأرق جفنه، وقل أمنه، وتزايد خوفه وحزنه، فأدته فكرته إلى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته ..، واستحضر ابن عمه موسى وأجراه على عادة إكرامه. ثم أخرج من كان بحضرته، وأقبل على عيسى وقال له: يابن العم، إنى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لى على حمل ثقله. فهل أنت فى موضع ظنى فيك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى؟ فقال له عيسى بن موسى. أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه. قال: إن عمى وعمك عبد الله، قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفى قتله صلاح ملكنا. فخذوه إليك واقتله سراً. ثم سلمه إليه.

وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله القصاص وسلمه إلى أعمامه - أخوة عبد الله - ليقتلوه به قصاصاً. فيكون قد استراح من الاثنين. عبد الله وعيسى.

قال عيسى. فلما أخذت عمى وفكرت فى قتله، رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيته من له رأى، عسى أن أصيب الصواب فى ذلك. فأحضرت يونس بن قرة الكاتب - وكان لى حسن ظن فى رأيه، وعقيدة صالحة فى معرفته - فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إلى عمه عبد الله، وأمرنى بقتله وإخفاء أمره. فما رأيك فى ذلك، وما تشير به؟ فقال لى يونس: أيها الأمير! احفظ نفسك يحفظ عمك ويحفظ عم أمير المؤمنين. فإنى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك، وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالق وأبواباً. وأظهر أمير المؤمنين إنك قتلته وأنفذت أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأنى به إذا تحقق منك إنك فعلت ما آمرك به، آمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد فإن اعترفت أنك قتلته بأمره - أنكر أمره لك وآخذك بقتله وقتلك.

قال عيسى فقبلت مشهورة يونس، وعملت بها، وأظهرت لأمير المؤمنين أنى أنفذت أمره. ثم حج المنصور. فلما قدم من حجه ـ وقد استقر فى نفسه أننى قد قتلت عمه عبد الله، ومشى إلى عمومته أخوة عبد الله، وحثهم على أن يسألوه في أخيهم ويستوهبوه منه. فجاءوا إليه، وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم. فسألوه عن عبد الله. فقال: نعم إن حقوقكم تقتضى إسعافكم بحاجتكم، فكيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو فى مقام الوالد.

ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى، فأحضر لوقته، فقال: يا عيسى. كنت دفعت إليك قبل خروجى إلى الحج عمى عبد الله. وقد سألنى فيه عمومتك. وقد رأيت الصفح عنه، وقضاء حاجتهم وصلة الرحم، بإجابة سؤالهم، فأتنا به الساعة.

قال عيسى: فقلت يا أمير المؤمنين! ألم تأمرنى بقتله والمبادرة إلى ذلك. وقال: كذبت لم آمرك بذلك. ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك. ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته. قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أننى أمرته بقتله، وقد كذب على. قالوا: فيا أمير المؤمنين، ادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه فقال: شأنكم به.

قال عيسى: فأخذونى إلى الرحبة واجتمع الناس على، فقام واحد من عمومتى إلى وسل سيفه ليضربنى به، فقلت له: يا عم أفاعل أنت؟ قال: أى والله، كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى؟ فقلت لهم لا تعجلوا وردونى إلى أمير المؤمنين. فردونى إليه فقلت يا أمير المؤمنين، إنما أردت قتلى بقتله، والذى دبرته على عصمنى الله تعالى من فعله. وهذا عمك باق حياً سوياً، فإن أمرتنى به بدفعه دفعته الساعة.

فأطرق المنصور وعلم أن ريح فكره صادفت أعصاراً، وأن انفراده بتدبيره قارن خسارا. ثم رفع رأسه وقال ائتنا به. فمضى عيسى وأحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته. اتركوه عندى وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً.

قال عيسى. فتركته وانصرف إخوته فسلمت روحى وزالت كربتى. وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها.

ثم إن المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح. ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت. فمات عبد الله.

الفهرس